

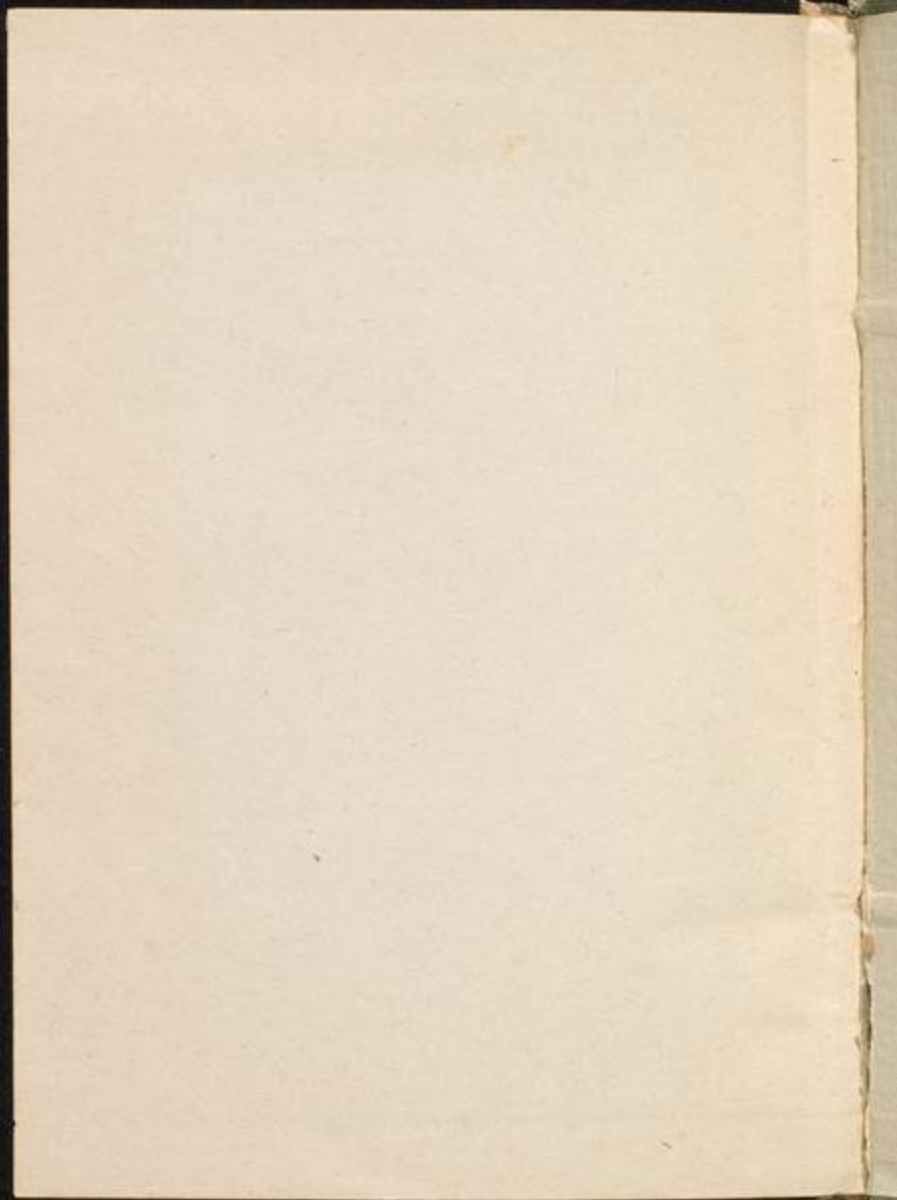
٤٥
٤٤
٤٣

٤٧
٤٤
٤٣

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES





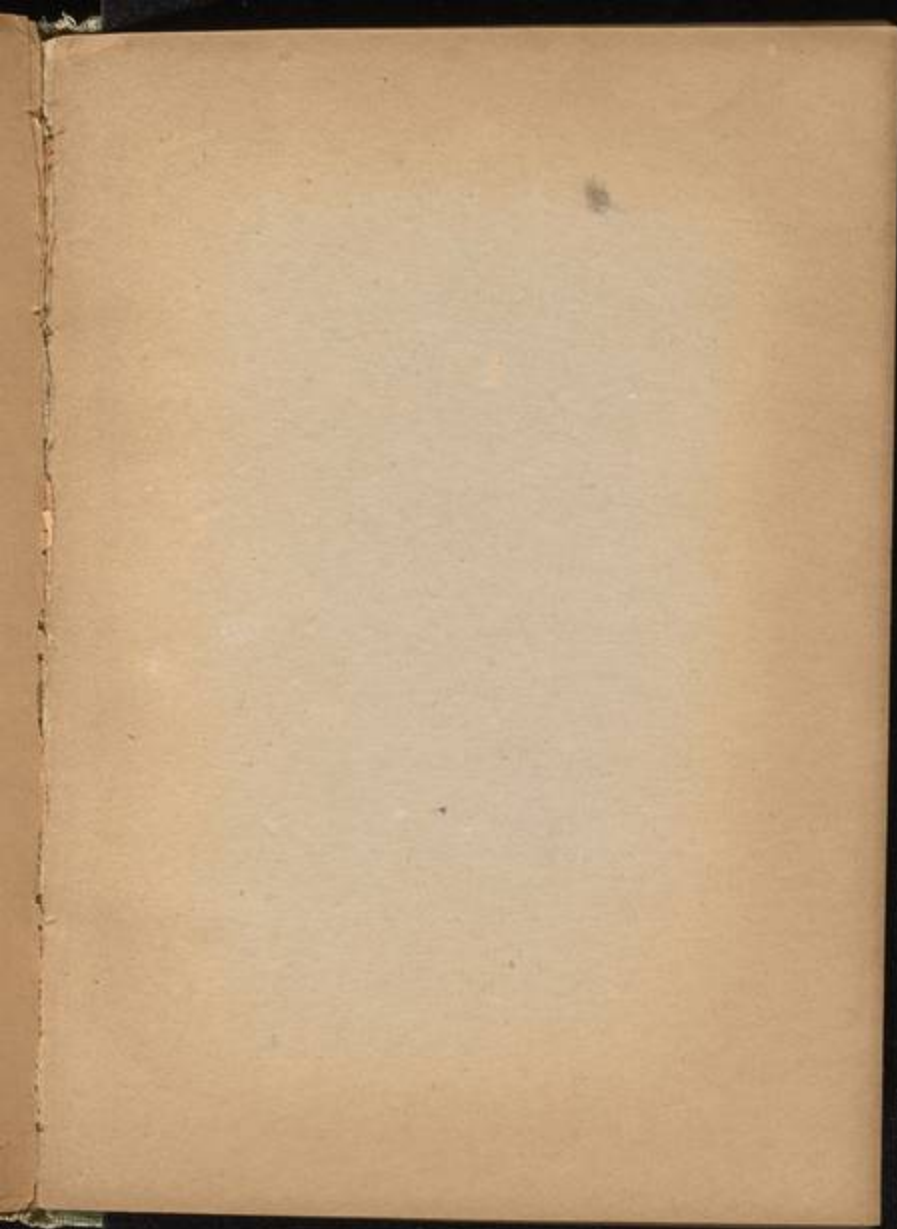
39141

اقرأ

طه عبد الباقي سرور

الفيزياء إلى

دار المعارف للطباعة والنشر



PT 5

Ma'arif
15/6/45

©

259

الفيزياء



طه عبد الباقي سرور

الفيزياء الى

ALFIZIYAH
ILALI
YASALI

٣١

اقرا

تصدرها وزار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون كميل بك
وجاسس محمود العيساد وفؤاد صروف

893.7634
BS4

أقرأ ٣١ - يونيو سنة ١٩٤٥

45-39141



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف

عصر الغزالي

كان القبس الالهى الذى أضاء الجزيرة العربية فى منتصف القرن السادس للميلاد أكبر بعث فكري عرفه التاريخ .
فقد أضيف به إلى التراث الإنسانى مادة سماوية امتزجت بالقلوب والعقول والأرواح امتزاجاً أنساها الدنيا هنيهة ، فأقبلت على هذا القبس تستلهمه وتسترشده وتبصر الدنيا على هداه .
وهيمن هذا القبس هيمنة تامة على مقومات الحياة فى المجتمع الجديد . فمن هذا القبس كان التفكير ، وكانت طرائق البحث والجدل .

واندفع هذا الشعاع الإلهى يقيم حضارة روحية معطرة القلب والفكر والعمل بعطر دينى خالص غالب على سواه من أنفاس الحياة وبواعثها .

وحمل بدو الجزيرة هذا القبس إلى العالم يراحون برايته مناكب أم أشد قوة وبأساً وأعرق حضارة وغرساً .

ثم هدأت فورة البدو وانتشر الشعاع مشرقاً ومغرباً ودانت
بالنور أم وشعوب تهاقت على المورد العذب تهمل وتعلم ثم
تحمل الراية .

ثم قامت الدولة العباسية في المشرق فكانت عجيباً ؟ كانت
انقلاباً كاملاً للمجتمع الجديد فهي دولة عربية اللسان فارسية
اللون عالمية التفكير . كانت انقلاباً جديداً ووجهاً جديداً
للحضارة الإسلامية والتفكير الإسلامي ، فإن كان عصر الأمويين
عصر قرآن وتسليم وإيمان فقد كان عصرأ عربياً خالصاً .

أما هذا المجتمع العباسي فهو مزاج عجيب من أم شتى تجمعها
عقيدة واحدة ، وتفرقها ألوان من التفكير . وألوان من التاريخ .
وألوان من الحضارات ، وألوان من الوراثة .

وابتداً هذا المجتمع الجديد يجذب إليه العقول من أطراف
المشرق تهرع إليه لتهدى بهدى قرآنه . أو لتلتمس العيش في
آفاقه ورحابه .

فلم يكن بدعاً أن يتفجر من هذا المجتمع أمجب مزاج فكري
في تاريخ الفكر والإنسان ؟

ابتدأت أقلام العلماء من أبناء فارس والروم واليهود تنقل

كنوز الفرس والأغريق والهنود في سرعة وحماس يزيكهما
 إقبال الجماهير وتأييد الولاة ، كما ظهر على أطراف الحياة الإسلامية
 فلاسفة إسلاميون تتلمذوا على اليونان والأغريق وأضافوا إلى
 تراثهما المعارف الإسلامية الجديدة .

وامتد تأثير هذا البعث السريع المتلاحق إلى الحياة الفكرية
 عامة فترك طابعه على الآداب . العربية ، كما تأثر به رجال الفقه
 والرواد الكلاميون . فإن المعتزلة وهم طلائع الكشف الفكري في
 الإسلام يدينون لفلسفة اليونان بأكثر ألوان الجمال المشعة في
 منطقتهم وحججهم .

ثم تلا عصر الترجمة عصر تلاطمت فيه المعارف الجديدة ،
 فنشأ عنها وجوه مبتدعة من التفكير والبحث والتأمل . وتميز
 العصر الجديد بساحة كاملة وحرية تامة ، عصر انتفت منه
 العصبية الفكرية الحساسة القيور وسادته إباحة مشرقة تشعر
 بحاجتها إلى الاستزادة من المعارف وتحس ظمأ ملحاً إلى تلك
 الآفاق المجهولة التي تتفتح أمامها من مشارق الأرض ومغاربها .

فما انتصف القرن الخامس الهجري ، أو ما يسمونه بالعصر

العباسي الثالث حتى كانت الدولة العباسية أمة مترفة الفكر ،
مترفة المزاج . مترفة البحث الحر .

كان للعصر العباسي الثالث طابع الإسراف في التفكير
وجموح الخيال ، بل لقد انقلبت وجوه الإسراف إلى بلبلة عجيبه
وعرض عجيب للملل والنحل والمذاهب .

مجتمع عجيب ؟ امتلأت حقائب تاريخه بمئات من الشيع
والفرق والمذاهب الدينية والفلسفية والكلامية ، حتى لقد أصبح
لكل لسان ذرب مذهب خاص به ولكل قلم ممتلىء أمة
فكرية تتبعه .

كان العلماء فيه أشبه بالثوار في عصور الفوضى ، في كل قرية
ثائر ، وفي كل طريق فارس ملثم أو سافر .

وكان لا بد لتلك الأمواج من المذاهب والنحل والشيع أن
تطغى وأن تثور ، وكان لا بد لها أن تتقاتل وتتطاحن ، وكان
لا بد لها أن تملأ الدنيا دويماً وزلزلاً ؟ ومن ثم شهد هذا المجتمع
أعنف حرب فكرية في التاريخ .

وهل هناك من عجب إذا رأينا سلطان الدين يضعف ويتوارى ،
وهل هناك من عجب إذا رأينا المذاهب الفلسفية تسود ورأيانها

أيضاً تجمح وتفرق في سبجات فكرية عجيبية الألوان والظلال ،
وتأملات روحية غريبة شاذة متنافرة غير متماسكة .

وأحس رجال الدين بالخطر ، وأحسوا أكثر من ذلك بأن
سلطانهم الديني مهدد بالزوال ، بل لقد شاهدوا تاج القداسة
يفارق رؤوسهم في قفزة سريعة ليختال في نوره رجال لا يعترف
رجل الدين إلا بزندقتهم ، رجال في طليعتهم الفارابي وابن سينا
ومن شبه الفارابي وابن سينا .

أحس رجال الدين بالخطر فأشعلوا أصابعهم ناراً وأطلقوا
أقلامهم بروقاً ، ولكن النار نالت منهم أكثر مما نالت من
خصوصومهم . واهل من أكبر أسباب الفشل في ثورتهم ما كانوا
فيه من تفرق ، وما كان بين طوائفهم من خصومة ولدد .
فقد كان لكل منهم عصبية وأنصار وكان هؤلاء الأنصار
يتطاحنون ويتمزقون ، فالحنفية تناهض الشوافع في المشرق ،
والمالكية تطرد ولا تطيق سواها في المغرب والأندلس ، والحرب
غير خافية بين الأشعرية والمعتزلة وبين الباطنية والسنة .

وفي هذا المحيط الغريب الثائر ، وبين تلك الحرارة العلمية

نشأ الغزالي . فكانت نشأته على هامش بركان ، وكانت معارفه ملتزمة حارة لأنها ولدت بين اللهب .

درس الغزالي كل ما في عصره من خير وشر ، ولم يهين نفسه في مطلع حياته لقن من القنون ، بل اندفع في زحام الفكر جباراً متوغلاً غير هيب ولا متحفظ .

ثم انطوى على نفسه ، وقد شك في حقيقة كل علم ، كما شك في أهداف الفرق والنحل والمذاهب .

شاهد الغزالي أن الإسلام قد انتقل من القلوب إلى العقول ، فانقلب إلى ملاحاة منطقية لفظية ومجادلات فقهية جامدة .

كما شاهد المذاهب السياسية وقد تقنعت بستار الفلسفة تارة وبستار الدين تارة أخرى ؛ فإن خلصت من هذا وذاك ، فهي لم تخلص تماماً من ميراث اليونان الوثني ، أو من سبحات الأفكار المضللة .

فأرسل الغزالي صيحة قديمة جديدة ، قديمة لأنها صيحة الإسلام في الجزيرة العربية منذ قرون . وجديدة لأنها دوت

في مجتمع أوشك ، وقد غرق في بحور الجدل والسفسطة ، أن ينسى
رحيقه الأول .

كانت قوة الغزالي التي خلدهته كحجة للإسلام ، أنه استطاع
أن يقف تلك التيارات المتداخلة من المحاورات الفلسفية
والمناظرات الجدلية والمنازعات الفقهية ، وأن يجعل القوة الإسلامية
المنهضة لتلك الزوابع تتركز فيه وتمثل في تعاليمه وصيحاته
المستمدة من الكتاب والسنة .

كان أشبه بزعيم وطني نبت في شعب ممزق متخاذل واهي
الروح فوحد صفوفه وجدد روحه وأحيا إيمانه .

نشأته وحياته

هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي ، جادت به الحكمة الخالدة في مطلع عام خمسين وأربعمائة للهجرة . وتسع وخمسين وألف ميلادية ببلدة طوس من أعمال خراسان من أصل فارسي .

وكان والده فقير اليد غني الروح يكسب قوته من مغزله ومن قيامه بخدمة رجال الدين والفقهاء في مجالسهم وخلواتهم .

وقد حاول بعض المستشرقين وفي طليعتهم العالم الألماني « وستنفليد » ، أن يثبتوا أن أسرته من أسر العلم الشوامخ ، ولكن الحقائق التاريخية لم تذكر لنا دليلاً واحداً يجرؤ على الثبات ، ولم تحدثنا عن ماضي تلك الأسرة شيئاً يعطمئن إليه النقد العلمي .

ولا يحدثنا التاريخ كثيراً عن والده ، ولا يروى لنا من صفاته إلا ذلك الإجلال العظيم الذي كان يملك حواس ذلك الوالد حيال رجال الدين والعلم ، حتى إذا سمع واعظاً أو فقيهاً تضرع إلى ربه أن يرزقه ابناً خطيباً واعظاً أو عالماً متعبداً .

ولعل هذا الإحساس الملح والرغبة النفسانية العنيفة في اكتساب المجد العلمي وتقديس الثوب الديني ، قد ورثهما الغزالي عن والده ، وإنما في صورة أخرى ، فقد أتيح للولد ما لم يتح للوالد ، ولعلنا في هذا الضوء ؛ نستطيع أن نفهم النهم العجيب في الغزالي الذي كان يدفعه في إلحاح وإصرار إلى الاستزادة من العلوم والإقبال على المعارف .

ومات هذا الوالد والغزالي وشقيقه أحد في مدارج الطفولة الأولى ، فتمهدا رجل صوفي فقير من أصدقاء والدهما الذي لم يترك لهما إلا صباغة من المسال ضئيلة ، ولم يترك للصوفي إلا وصية واحدة هي قوله : « كانت أمنيته في الحياة أن أعلم الخط فأريد منك أن تحقق أمنيته في نجلي هذين » . وقد بر الصوفي بتلك الوصية فاهتم بهما علماً وخلقاً ، حتى تقدمت صباغة المسال التي تركها والدهما ، فضاقت يده عن طعامها والإنفاق عليهما فقال لهما :

« اعلموا أنني انفقت عليكم ما كان لكم ، وأما أنا فرجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكم وأصلح حالكم فما لكم ألا تلجأ إلى مدرسة ، فإنكم طالبان للفقه عساه يحصل

لكما مقدار قوتكما^(١) حتى كان الغزالي يقول كلما عاودته تلك
الذكري « طلبنا العلم لله فأبى إلا أن يكون لغير الله » .
وقضى الغزالي فترة في إحدى مدارس العلم الديني في بلده ،
قرأ الفقه خلالها على : « أحمد بن محمد الطوسي ، ثم جنحت به
نفسه إلى الاستزادة من العلوم ، فهاجر إلى جرجان إلى الإمام
العلامة « أبي نصر الإسماعيلي » .

وفي جرجان ابتداء الغزالي يكتب ما يتلقى من علوم أستاذه ،
ولكن يظهر أنه لم يستفد عقلياً مما كتب أو استمع ؛ بل كان
يقراً أو يكتب في نهم وسرعة دون عناية بالفهم والهضم يدل
على ذلك تلك القطعة الطريفة الساذجة المكتوبة بقلمه في
اعترافاته التي أسماها « المنقذ من الضلال » والتي تدل على
تلك الفترة من حياته قال :

« قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع مامعي ومضوا
فتعقبتهم فالتفت إلى مقدمهم ، وقال ارجع ويحك وإلا هلكت

(١) مجانية التعليم وإطعام التلاميذ بالحجوان سبق بها المسلمون العالم اجمع .
ومن بقايا ذلك التعاميم الحجواني بالأزهر الشريف بل منيح الطلاب
فيه إعانات مالية شهرية .

فقلت له أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي ، وما هي تعليقتك ، فقلت كتب في تلك الحفلة هاجرت لسماعها وكتابتها ، ومعرفة علومها ، فضحك ، وقال : كيف عرفت علمها ، وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلي الحفلة ، فتركت تلك الحادثة في نفسي أثراً كبيراً ، وقلت في نفسي : هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أنجرد من علمي .

وتلك القطعة التصورية من قلم الغزالي تدلنا على صفة كان لها أكبر الأثر في إعداده ورسالته ، وهي تأثره العجيب بالجانب الديني الصوفي من الحياة ، فهو يرى في جواب قاطع الطريق رسالة سماوية ونطقاً ربانياً لإرشاده في أمره وطرق تعليمه .

عاد الغزالي من جرجان إلى طوس وانقطع انقطاعاً تاماً كما يقول إلى العلم ثلاث سنوات حتى حفظ جميع ما درس واستوعب ما قرأ بحيث لو قطع عليه الطريق وسرق مامعه

لم يتجرد من العلم والمعرفة . والعلم في نظر الغزالي كان خلال تلك المدة غير واضح المعاني . غير واضح الأهداف ، فهو يدرس ويحفظ على طريقة عهده ، كتب الدين وآراء المذاهب والفقهاء ، ليكون يوماً ما من رجال التدريس أو القضاء أو قد يسعده الزمان فيلتحق ببطانة عظيم أو أمير أو سلطان .

ولكن تلك الروح العظيمة التي أعدت لغير ما يعدها صاحبها ، لم تقنع بما وصلت إليه من دراسات ، ولم تطمئن إلى ذلك اللون من التعليم ؛ بل لم تقنع بما ألقى إليها من يقين إذ هي تنشد معاني أخرى ، وتتلصص باباً إلى النور لم يزل خافياً .

وضاقت معارف طوس بالغزالي ، كما ضاقت بها ، فرحل إلى نيسابور إحدى مدن العلم والنور في عهده ، وهناك اتصل بإمام الحرمين أبي المعالي الجويني علم عصره في التوحيد والإسلام بمذهب الأشعرية وطرق الجدل والأصول والمنطق .

وفي نيسابور ابتدأت خطوط تلك النفس العظيمة تتكون وتتضح ، وابتدأت آفاق الغزالي تفتح وتتسع ، فهو يشاهد فيها دنيا جديدة ومجتمعاً جديداً مزدحماً بأنفاس العلماء كما هو مزدحم بأنفاس الحياة .

وفي نيسابور ابتداءً إيمان الغزالي بعلم الفقه يضعف ، كما أخذ
إجلاله للعلماء يتضاءل ، فهو يدرس ويستمع إلى آراء المذاهب ،
ويعجب لتفرقها وتخاصمها ، كما يعجب لطرائقها في البحث والجدل .
ويعجب أكبر ما يعجب خلوها من الروح والإيمان .

وفي نيسابور شاهد الغزالي ولا مأس أخلاق العلماء والفقهاء ،
فإذ هي ضروب عجيبية من الرياء والنفاق ، وألوان مبتكرة من
الجشع والتهالك على متاع الحياة ، فشك الغزالي في أخلاقهم
كما شك في علومهم ، وبذلك انتهى إيمانه بالعلم التقليدي ،
فأقبل على الفلسفة ينشد لديها الإيمان ويرجو عندها متاع
العقل والقلب والروح .

ولكن الفلسفة خذلتها أكثر مما خذله العلم التقليدي ، فهو
ينشد إيمان الروح ؛ إيمان القلب ، والفلسفة وإن أرضت العقل
الحر أو العقل المعتز بنفسه ، أو العقل الذي لا يطبق الخضوع
ويتعالى بالكبرياء ، فهي لا ترضى القلب الذي ينشد السلام ،
ولا ترضى الروح التي تنشد الاطمئنان ، فأضاف الغزالي شكوكاً
جديدة في الفلسفة إلى شكوكه القديمة في العلوم التقليدية .

وبذلك تحرر الغزالي من كل قيد فكري ، كما تحرر من

كل قيد يقيني ، فانطلق حراً طليق الفكر ينشد الهداية بين
المذاهب والنحل ويتلمسها في الشك تارة ، وفي التأملات
الغامضة أخرى ، غير مثقل العقل بميراث يقيده ، ولا مشغول
اليدين بعلم خاص يجله ويكبره .

وأسمى الغزالي وأصبح فإذا به المتهم الأكبر في جيله .
وعرفته محافل العلم أستاذاً بارعاً متعمقاً في كل بحث ، مغرماً
بالمجادلات والمناقشات ، ومغرماً أشد الغرام بالتحطيم والتجريح ،
فلم يغادر مذهباً من المذاهب لم ينقضه ، ولم يدع فرقة من الفرق
بدون تجريح وإيلام .

وقد أوتى أسلوباً بارعاً ، وقلماً ساحراً وعرضاً عبقرياً ،
وتلك أسلحة فكرية رهيبة عظيمة الخطورة إذا وضعت في يد
متهمة مغرمة بالقتال والصيال ، مغرمة بالبحث والجدال علماً
ترضى صياح الشك في أعماقها ، أو ترضى الظلم إلى اليقين
في روحها .

فلا عجب إذا رأينا ملاحم متتابعة متلاحقة شديدة الأوار
تنشب بين الغزالي وجيله ، وهي ملاحم أضافت إلى التراث
الفكري كنوزاً من المعرفة لا يزال شعاعها واضح النور والسناء .

طريقته في القراءة والبحث :

ونحن ننقل من كتابه « المنقذ من الضلال » قطعة توضح تلك الفترة الثائرة من حياته وتهدى إلى طريقته في دراساته للمذاهب ، ومهاجمته للنحل والأفكار والعقائد قال :

« ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ ، وقد أنافت السن الآن على الخمسين أفتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتفحم كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة .

لا أميز بين محق ومبطل ، ومتسئن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطنته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صوفته ، ولا معتبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً إلا وأنجس

وراءه للتنبيه إلى أسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمرى وريغان شبابي ، غريزة وفطرة من الله وضعت في جبلي لا باختيارى وحيلى . »

تلك هى صورة الغزالي العالم الباحث ، وذلك هو الوجه الذى عرف به فى نيسابور التى ارتبط فيها بصداقة روحية مع أستاذه إمام الحرمين حتى رشحه ليقوم مقامه فى التدريس .

ولكن أستاذه وصديقه ، لم يلبث ان انتقل إلى الرفيق الأعلى ، ففارق الغزالي نيسابور حزين القلب والروح ، فارق الغزالي نيسابور ، وقد فقد الشعاع الروحى الأخير الذى كان يجسسه عن المغامرة الكاملة فى الحياة ، فأرقها إلى بغداد ينشد فيها مجد الدنيا ومتاع الروح وليقارن فيها حظه بحظوظ العلماء والدارسين .

الغزالي ينشد متاع الحياة :

كانت حياة الغزالي منذ شعاعها الأول حياة فكرية خالصة حياة عازفة عن الجاه ومتاع الحياة ، وكانت نهاية تلك المرحلة أيامه الأخيرة فى نيسابور .

وها نحن أولاء نشاهده في طريقه إلى بغداد ، يحدث نفسه
 بوداع حياة واستقبال أخرى ، فهو لم يلق في حياته الأولى سوى
 عذاب فكري متلاحق ، بل لم ينعم ولم يذق إلا مرارة المعارك
 والخصومات الحارة باحقادها ومتاعبها ، ولم يتمتع إلا بلقيات
 غير دسمة ولا سائغة .

فكر متوثب ملتهب لا يهدأ ولا يطمئن ولا يشعر بلذة اليقين
 وعلم لم يكسب صاحبه ما يكسبه العلم لأهله في عهده من متاع
 الحياة ومباهج السيادة والحكم ، فلم لا يقذف بكل هذا وجه
 القضاء ؟ وإذا كان هذا الفكر الملح في شكه .. الملح في ثورته ..
 الملح في تهكمه لا سبيل إلى إمتاعه وإرضائه ، فإن قسوة الحياة
 يمكن أن تبديل بطيب المتاع ، وجمال المظهر . وعزة الاتصال
 بالولاة وما فوق الولاة من الأمراء والملوك .

وبغداد في ذلك التاريخ مهوى أفئدة رجال العلوم ، ومهوى
 أفئدة طلاب المغامرة وعشاق المجد . وفي بغداد يسوس الملك
 مغامر عالم « نظام الملك » الذي ابتدع المدارس النظامية وأسسها
 على علوم السنة لينافس بها أزهر الفاطميين وليطاول بها علوم
 الشيعة التي تلتقى في أزهرهم .

ومثل هذا الأمير في حاجة إلى عالم متفوق بارع في الجدل ،
 بارع في الخصومة ، بارع في دعم الحجج والبراهين ، براعته في
 نقض الحجج والبراهين .

والغزالي اللامع يدرك مطلب الأمير ، ويدرك ما يمكن أن
 يظفر به لدى الأمير .

ولذا فقد اعتزم أن يكون مقدمه ضخماً فخماً لا ينسى ، واعتزم
 أن يطلع الأمير في اللحظة الأولى على مقدار نبوغه وبراعته في
 الحوار والجدل ، وتفوقه في المذاهب والنحل .

الغزالي ونظام الملك :

جاء في كتاب المقفي :

فلما مات أبو المعالي خرج الغزالي قاصداً نظام الملك ، وناظر
 الأئمة والسكبار في مجلسه وقهر الخصوم وظهر كلامه على الكل
 واعترف بفضل الخاص والعام ، وتلقاه نظام الملك بالقبول وأحله
 محل النفوس . وأجسه إجلال الروس ، ثم ولاه التدريس
 بمدرسته النظامية ببغداد وأمره بالتوجه إليها فقدم ببغداد سنة
 أربع وأربعمائة وهو في الرابعة والعشرين من عمره . إلى أن يقول :

« ثم درس بالنظامية فأعجب الكل بحسن كلامه وكمال فضله وعبارته الرشيقة ومعانيه الدقيقة وإشاراته اللطيفة ونسكته الظريفة » .

وفي بغداد تمتع الغزالي بما اشتهى من جاه ومال وسيادة ، وأحلّه نظام الملك مكاناً عليّاً ، واتسعت حلقات دروسه واشتهر بفتاواه الشرعية البارعة ، وابتدأ في تأليف كتبه التي سيخلد بها . وقد كان لنظام الملك تأثير بعيد المدى على الغزالي ، فنظام الملك صوفي شديد التعلق بالصوفية شديد التعصب لمبادئهم وطرائقهم ، مسرف أشد الإسراف في البذل عليهم وإعداد التكايا لهم .

حتى ليواجه الخليفة بتلك القولة الغريبة وهو يعاتبه لإسرافه في النفقة عليهم وإهمال الجيوش « لقد أقت لك عباداً بالليل لو صاحوا لزلزلت الدنيا بخصومك ومادت الأرض بهم » .

كان لنظام الملك فضل توجيه الغزالي إلى التصوف والصوفية . وقد كان شديد الخصومة لهم شديد الإسراف في نقدهم ، فاندفع الغزالي كعادته يبحث كتبهم ويفشى مجالسهم ، بل ويشترك في حلقات ذكرهم ، ولكن تلك المبادئ السمحة لم تقنع الغزالي بل

لم تستطع أن تنتزع ريشة واحدة من طائر الشك المحلق في رأسه^(١) فأعرض عنها كما أعرض عن العلوم التقليدية والفلسفية من قبل .

وظن أصدقاء الغزالي وأعداؤه معاً ، أنه قد بلغ الغاية من السعادة ، فقد حقق لنفسه منتهى آمال أمثاله من رجال الدين والتدريس .

فهو صديق الأمير وعالمه ، كما يتولى التدريس في أكبر جامعة علمية في عصره ، له فيها المكان المرموق والكلمة العالية ، وأصبحت حلقات درسه ملتقى الأمراء والوزراء والعلماء ، وغدت فتاويه أشبه بالقرمانات للملكية حتى ليستأذنه الأخفش في غزو الأندلس ، كما يطلب فتواه في جواز توليته ملك الأندلس مع المغرب وتلقبه « بأمير المؤمنين » .

وفي هذا الجو الساحر الزاخر بمتع الحياة وسيادة الفكر ، وبين تلك المسكنة العليا التي غدت للغزالي في العالم الإسلامي من بغداد إلى تخوم الهند وسواحل المحيط الأطلسي ، كان الغزالي يتعذب

(١) درس الغزالي مبادئ الصوفية مرتين ، مرة قبل اعتكافه ، فلم يؤمن بها ، وأخرى بعد الاعتكاف فتحمس لها وحمل لواءها .

ويقال ويشقى شقاء لا يعرفه إلا العلماء، ولا يتصوره
إلا رجال الفكر.

كان لهب الشك يحرقه في صمت، وكان تعطش روحه
العميق إلى الإيمان يفسد عليه متع الحياة؟

وكان الغزالي كثيراً ما يحاور نفسه ويجادها، ويقاب أفكاره
ويفندها، ويختلي بقلبه يسأله الإيمان بعد أن أضله العلم والعقل
فلا يسمع من قلبه جواباً ولا يرى في حياته للأمل باباً.

وإذ به فجأة ينقطع عن الدرس والفتيا؛ وإذ به فجأة يلازم
الفراش لغير علة واضحة، وإذ به يجافي الطعام، وينعقد لسانه عن
الكلام، وإذ بقوة هضمه تبطل، وإذ به في حالة ذهول كامل
حار فيها الأطباء وعجز العلم عن توضيحها وتعليلها.

حتى إذا يئس طبيبه من أمر مرضه، قال هذا أمر ينزل في
القلب ولا رجاء في حياته إذا لم يتغلب على مشاغل نفسه ولم
يخفف وطأة إجهاد ذهنه.

ولسكن هذا المريض الفاقد للحركة وشهوة الطعام والكلام
ينهض فجأة إلى الحج، ثم إذ به يعلن للدنيا اعتزاله التدريس
ومظاهر الحياة وانقطاعه لعبادة الله.

أسباب عزله بقلمه :

يقول الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » ، موضحاً هذا الصراع الخالد :

« فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من سنة ، وأخيراً جاء دور العمل ، وجاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، وقد قفل الله لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبيقاً لقلوب المختلفين إليّ ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة ولا يستطيعها ألبتة ، ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم حتى قطع الأطباء طعمهم من العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم .

ثم لاحظت أعمالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أهدتني من جميع الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فإنما أنا معتقل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خالصة لوجه
الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت .
فتيقنت أنني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار إن
لم اشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على
مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك
الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر
أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، ألا ويحمل
عليها جند الشهوة حملة فتفتتها عشية . فصارت شهوات الدنيا
تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى : الرحيل
الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ،
وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل زياء وتخميل ، فإن لم تستعد
الآن للآخرة فمتى تستعد ، وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى
تقطع ، فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب
والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة إياك أن تطاوعها
فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها ، وتركت هذه الجاه العريض
والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن السلم

الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفت إليه ولا يتيسر لك المعاودة .

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار . ثم يقول : ولما أحسست بعجزى وسقط بالكلية إختياري . التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجب المضطر إذا دعاه وسهل على الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة . وأنا أدير في نفسي سفر الشام . حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام في الشام ، فتلظفت في الخروج من بغداد على عزم ألا أعاودها أبداً .

إذن فالغزالي يجعل اعتكافه لأسباب نفسية غامضة وسبجات دينية غير واضحة أنقذه الله منها إلى الهداية والتوفيق ؟ ولكن العلامة ماكدولاند المستشرق الذي تخصص في دراسة الغزالي ، يقول : إن هذا الاعتكاف يمت بأسباب وثيقة إلى الحياة السياسية المعاصرة له ويستدل على ذلك بمحادثتين .

هل هناك أسباب سياسية :

لا ريب أن الغزالي باعتباره من أكبر رجال « الفتيا » في عصره قد ساهم بعض المساهمة في إحداث الدولة السياسية ، لا سيما وعصره من العصور المضطربة التي ساهم فيها الفقهاء والقضاة مساهمة كبرى في الأحداث السياسية .

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته أن يوسف بن تاشفين أمير المغرب بعد أن أعان سادة الأندلس على قهر « الفونس » ملك قشتاله طمع في الأندلس ، فألحقها بملكه بعد استفتاء علماء العالم الإسلامي فأفتوه بحقه في ذلك ، ومنهم الغزالي ، بل لقد أفتوه أيضاً بجواز تلقيب نفسه « بأمير المؤمنين » ، وفي هذا إغضاب أى إغضاب لسادة بغداد .

ويذكر « ماكدولاند » أيضاً أن الخليفة المستظهر أمره بأن يضع كتاباً يرد به على الباطنية حينما وضحت أهدافهم السياسية فنادوا بفكرة « الإمام المعصوم » على طريقة الشيعة .

وقد اعترف الغزالي بأنه هاجمهم مكرهاً لأنه تلقى أمر الخليفة فلم يسعه مدافعته ، ثم قيل بعد ذلك بأن ما كتبه أغضب الخليفة

لأنه كان أقرب إلى تأييد الباطنية من مهاجمتهم وتفنيدهم مذاهبهم .
 ولكن اعتراف الغزالي لا يرضى النقد العلمى فى توضيح
 أسباب عزله . كما أن رأى العلامة ماكدولاند لا يلقى ضوءاً
 كافياً يستريح إليه ضمير الباحث الذى يتجرى الحقائق ، إلا إذا
 كانت ترضيه دعوى بعض علماء عصره بأن ما حدث للغزالي .
 إنما هو عين أصابت الإسلام فيه . !

الدوافع الحقيقية لعزله :

فهل حقيقة أن الغزالي اعتزل التدريس لأنه كما يقول ، لم
 تكن نيته فيه خالصة لله بل باعها ومحررها طلب الجاه وانتشار
 الصيت .

أم أنه اعتزل التدريس والحياة لتحول وجه الخليفة عنه
 بتحيزه إلى يوسف بن تاشفين أمير المغرب . !

إننا فى حاجة إلى كثير من السداجة لنصدق الغزالي إذ يقول
 فى سداجة إنه ترك التدريس لأن نيته فيه غير خالصة لوجه
 الله وإنما باعها ومحررها طلب الجاه وانتشار الصيت .
 وهل هناك نفس بشرية تجردت تجرداً كاملاً من هذا الباعث

والحرك ، أو نحاسب على هذا الباعث والحرك ؟ وما معنى أن نيته فيه لم تكن خالصه لوجه الله ؟ هل أجبر الغزالي على أن يلقي دروساً معينة تتعارض مع روح الإسلام . ؟
 وإذا لم يكن هذا . فما معنى هذا الكلام الغريب الساذج ؟ وهل إذا ترك الغزالي التدريس يكون ذلك مبرراً لتركه الحياة واعتكافه . ؟

فإذا أعرضنا عن هذا ونظرنا أو صدقنا العلامة ماكدولاند في أن عزلته كانت سياسية فإن الأسباب التي ذكرها لا تبرر اعتكاف الغزالي بل إصراره على الاعتكاف طوال حياته .
 إن اعتكاف الغزالي كان باعثة تلك المعركة المشبوبة بين إيمانه وشكّه ، وهي معركة لعبت في حياة الغزالي وتفكيره دوراً خطيراً فاصلاً .

شك الغزالي في كل علم درسه ، شك في قيمة العلوم كما شك في مظاهر الحياة وأهدافها وغايتها ، شك في كل ما يقع تحت الحس وفي كل ما يثبتته العقل . شك حتى في تفكيره اشم التمس الهداية عن طريق الحواس والعقل ونشدها في كل أفق شاهد فيه الضياء والنور ، أو خيل إليه أن فيه الضياء والنور .

ولنا أن نسأل هل شكوك الغزالي طارئة ، وهل حقيقة أن
الشك لم يظفر بقلبه إلا في المدرسة النظامية ، وهل حقيقة أنه
اعتزل الطعام والكلام لأنه وجد نيته في التدريس غير خالية
من حب الشهرة والمجد ؟

عراقته في الشك :

إن نظرة إلى حياة الغزالي ترينا أنه عريق في الشك فهو
يحدثنا أنه كان في مطالعاته يخوض بحور العلم خوض الجسور
لا خوض الجبان الحذور ، وأنه كان يتوغل في كل مظلمة ، ويتهمج
على كل مشكلة ، ويتفحص كل عقيدة ، لا يميز بين محق
ومبطل . ومتسئن ومبتدع ، لا يغادر باطنياً إلا ويحب الاطلاع
على مبادئه ، ولا ظاهرياً إلا ويريد الإحاطة بآرائه ، ولا زنديقاً
إلا ويتجسس على ألوان زندقته ، ولا متعبداً إلا ويجتهد في
تفهم دوافع عبادته ، كل ذلك منذ شبابه .

أليست هذه أكبر آيات الشك ؟ وأليست هذه نذر هدم
الإيمان أو الاطمئنان إلى مذهب من المذاهب أولون من الألوان ؟
وقد أخطأ كثير من مؤرخي الغزالي حينما ظنوا أن فترة

الشك إنما ظفرت بقلبه وهو يدرس في المدرسة النظامية ، وأنه قد وثب من الشك إلى التصوف وثباً .

ويستدلون على هذا بأن كتب الغزالي التي كتبها قبل ذلك التاريخ قد خلت من جموح المتشكك ، ووثبات عدم الإيمان . ويقولون أيضاً إن عصر الغزالي كان من أكبر عهود الشك والتلون في التاريخ ، فليس ثمة من تقاليد أورهة تمنع الغزالي من المجاهرة بشكه في مثل هذا المحيط وهو الجريء المتوثب .

ويظنون بهذا أنهم قد أقنعوا أنفسهم وأقنعوا التاريخ معهم . فلو تأملنا قليلاً في كتبه التي كتبها في تلك الفترة لرأينا عجباً ؟ لرأينا الغزالي المؤمن فيما يظهر ، هو أكبر شاكٍ فيما يبطن .

ومن يقرأ مقاصد الفلاسفة يلمح من بين سطوره أن الغزالي يكتب ليقنع نفسه ، ولهذا فهو يجمع شتيتا من حجج الفلاسفة ويمرضها ويبسطها ويتلاعب ويفتن في تصويرها وتلوينها وكأنه يتغزل فيها ويناغها .

وقد عرف عنه هذا في ردوده على الباطنية ، فقد عمد إلى توضيح مذاهبهم تمهيداً لهاجتهم . ولكنه كان في توضيح

مبادئهم ، أكثر منهم أنفسهم بياناً وفصاحة وإغراء في عرض حججهم وإبراز قوة الإقناع فيها .
فلما هاجمهم لم يفتن عنه هذا شيئاً في اتهامه بالميل إليهم والمحبة لهم .

ومن يقرأ تهافت الفلاسفة يلمس أنه كتبه أولاً وقبل كل شيء ليرضى شكوكه ، فهو يهاجم الفلسفة في عنف وفي حرارة .
ويجمع في يديه جميع الأسلحة الفكرية التي يؤمن بها والتي لا يؤمن ليحطم الفلسفة ومذاهبها ودعاتها ، بل ليحقر من شأنها ولينال من أفكارها وطرقها العقلية في إصرار وعناد .
ثم من يقرأ كتبه المعاصرة لهذا التاريخ يرى تبايناً عجيباً في آرائه ، فهو يهاجم الفلاسفة محتجاً بآراء المعتزلة والأشعرية ، ويهاجم المعتزلة محتجاً بأهل السنة ، ويهاجم رجال الفقه محتجاً بالتصوف .

وإذن فالغزالي عريق في الشك ، أو على الأقل لم يهب نفسه لفكرة واحدة ولم يستأثر بقلبه إيمان معين .
ولكن الغزالي امتاز بين المتشككين بأنه نشد الهداية في صدق وحرارة ، وتلمسها راغباً حقاً في الظفر بها . كان يشعر

بمخنيين ملح إلى الاطمئنان واليقين ، يطاول تلك الرغبة الملحة في الشك والجدل .

ومرجع هذا أن الغزالي كان يلتقي في قلبه خليط من شكوك عقله ، بخليط من إيمان قلبه، فقد كان عقله أدنى إلى عقول العلماء للذين لا يؤمنون إلا بالمنطق وحقائق الموازين العلمية بينما كانت روحه أدنى إلى أرواح الزاهدين العابدين .

ومن هنا نفهم السر في الصراع المشبوب أبداً بين روحه وعقله ، ومن هنا ندرك السر في أنه كلما اشتدت به ثورة الشك كان يأخذه المرض حتى يعجز عن الطعام والكلام .

وقد ثارت به في المدرسة النظامية عندما بلغ غاية عليا بين العلماء ورجال المال وإجاء رغبة ملحة إلى الإيمان ، كما ثارت به ثورة من الشك حارة قاسية .

الأولى تذكره بالآخرة ونعيمها ورضاء الله وجلال القرب منه وتذوق رحيق الرضا والسلام واليقين .

والثانية تمنيه وتمعه بإجاء والمال والتفوق العلمي ولذة النصر في ميادين الجدل والحوار ، وتذره أنه قد يفارق كل هذا ويحرم

من كل هذا فيشقى ويتألم ثم يحاول الرجوع فلا يستطيع فيفقد
الراحتين ويحرم اللذتين .

وتردد الغزالي طويلاً بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي
الآخرة ، حتى فقد إرادته وأضاع اختياره وأصبح العوبة لأفكاره
وأهوائه .

احترق الغزالي في تلك الفترة بلهب الحيرة والشك وتلاطم
الفكر وحيرة العقل والقلب والحس حتى سرى الأمر من الروح
إلى الجسد فأمسك لسانه ، حتى فقد الكلام وأورثه ذلك حزناً
في القلب بطلت معه قوة الهضم . فقال الأطباء : هذا أمر نزل
بالقلب ومنه سرى إلى المزاج فلا علاج إلا بزوال علته الذهنية
والفكرية .

وفي تلك الظلمات ، وبين النار والدخان والنور الذي يلوح
من وراء الأفق ، التجأ الغزالي إلى الله ، يطلب النجدة ، ويطلب
الإيمان ، وينشد اليقين والسلام ، فأجابه الذي يجيب المضطر
إذا دعاه ، وأراه من الأسرار ما سهل عليه الإعراض عن الجاه
والمال والأصحاب .

الهداية :

فارق الغزالي بغداد ، بل فارق حياته الأولى بشكوكها العقلية للملحة ، ومتاعها الدنيوية ، وملاذها الجسدية ، ليستبدل بالشك إيماناً ثابتاً لا تجرؤ عليه الشكوك أو الخيالات وبدنيا القراءات والمجادلات ، دنيا من تأملات الفكر وكشف الروح ، وبمتاع الجسد متاعاً علوياً .

فارق الغزالي بغداد لينطق سائحاً في أحلامه وتفكيره ، وليبتدع ما شاء له الإلهام من تراث خالد .

فارق المنصب الرفيع ، والعيش الهنيء ، الزهد والتقشف ، والتأملات العليا ، وهو انقلاب بعيد المدى ، لافى حياته وتاريخه بل في تاريخ الفكر الإسلامي إلى يومنا .

وهذا الانقلاب هو شرخلود الغزالي ، إذ به جدد نفسه ، بل من آثاره أن جدد الغزالي الحياة الفكرية لعصره ، بل كان من نتائجه أن طبع القرون التي تلتها بطابعه وتفكيره

فارق بغداد وفارق التدريس ليلجأ إلى الله في بيته الحرام ، بل ليهنأ بالإيمان ومعرفة الله عن طريق الإتصال الشخصي به ،

جاءلاً الوساطة في ذلك الروح لا العقل . جاهد الغزالي نفسه
جهاداً خالداً ليخلصها من شوائب الحياة حتى تصفو صفاء يؤهلها
للمعرفة واليقين والتلقين .

يقول الغزالي :

« نظرت إلى نفسي فرأيت كثرة حججها فدخلت الخلوة
واشتغلت بالرياضة والمجاهدة أربعين يوماً^(١) فانقذح لي من العلم
ما لم يكن عندي أصفى وأرق منه مما كنت أعرفه فنظرت فيه ،
فإذا فيه قوة فقهية ، فرجعت إلى الخلوة ، واشتغلت بالمجاهدة
والرياضة أربعين يوماً فانقذح لي علم آخر أرق وأصفى مما حصل
عندي أولاً ، ففرحت به ثم نظرت فيه فإذا فيه قوة نظرية
فرجعت إلى الخلوة ثالثاً أربعين يوماً فانقذح لي علم آخر هو أرق
وأصفى فنظرت فيه فإذا فيه قوة ممزوجة بعلم . ولم ألق بأهل
العلوم الدينية ، فقلت إن الكتابة على المحو ليست كالكتابة
على الصفاء الأول والطهارة الأولى » .

(١) قال الله تعالى في سورة الحديد « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا
برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » . وفي الحديث
العزيز « من قام لله أربعين صباحاً جعل الله الحكمة في قلبه تنفجر على لسانه » .

وبهذا سلك الغزالي إلى الهداية مسلك الكشف الروحي ،
والتجأ إلى الاعتكاف والمجاهدة ليطهر نفسه ، ويعدها للانقلاب
الفكري العظيم .

خاتمة حياته :

ومن البيت الحرام رحل الغزالي إلى دمشق ، ويقول المقرئ
في المقفى : « إنه جعل وهو في دمشق يعكف في زاوية في منارة
الجامع الأموى ويلبس الثياب الخشنة ، ويتقلل في مطعمه ،
ومشربه واعتزل الناس وأخذ في تصنيف كتابه إحياء العلوم ،
وذهب يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد ، ويروض نفسه
على المجاهدات ويكلفها مشاق العبادات إلى أن لان له صعبها
وسهل له بعد ضيق رحبها » .

ومن ثم صفت روحه صفاء أهلها لاقتباس النور من منابع
النور العليا فألف أخلد كتبه ومنها الإحياء ، كما ذهب إلى بيت
المقدس واعتكف في المنارة الغربية من المسجد الأقصى ثم رحل
إلى الإسكندرية .

ثم عاد إلى وطنه خراسان فعاش معتزلاً منهمكاً في التأمل

والمجاهدة والتفكير . ومن محب أنه عاود التدريس في المدرسة النظامية ببغداد ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ووزع أوقاته بين تلاوة القرآن ومجالسة أرباب القلوب والتدريس ، والكشف الباطني ، كما أخذ يدرس علم الحديث .

وكانت وفاة الإمام الغزالي بطوس يوم الإثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسة المواقف ثمانية عشر من ديسمبر سنة ألف ومائة واحد عشر ميلادية ، ونقل ابن الجوزي في كتاب الثبات عن أحمد أخي الغزالي أنه قال :

« لما كان يوم الإثنين وقت الصبح توضع على أبي حامد وصلي ، وقال علي بالكفن فأخذه وقبله ووضع على عينيه وقال سمعاً وطاعة للدخول على الملك ثم مدرجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار »

الشك مقدمة اليقين .

تتقاطع حياة الغزالي بين فكرتين ، لكل منهما أكبر الأثر في دراساته وتوجيهاته ، وإلى هاتين الفكرتين ترجع جميع الألوان والصفات المميزة لميراثه الثقافي ، وهما الشك والإيمان ، فهما مفتاح

الوصول إلى تفهم شخصيته وأساليبه وأفكاره .

وقد آمن الغزالي بالشك واعتنقه صراطاً علمياً ، يقول في خاتمة كتابه « ميزان العمل » « ولو لم يكن في مجارى هذه الكلمات إلا ما يشكك في اعتقادك الموروث لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً ، إذ الشكوك هي الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال » .

وإذن فالشكوك في مطلع حياة الغزالي كانت طريقه إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال . تلك هي شريعة الغزالي وهذا هو منهاجه العلمي ، وقد درس العلوم التقليدية والفلسفية والمذهبية في هذا الضوء .

وقد سبق الغزالي بجعله الشك مذهباً من مذاهب العلم ، وفي إيمانه بأن الشكوك هي طريق الحقائق « ديكارت » و « دافيد هيوم » وهما أئمة هذا المذهب في الفلسفة الأوروبية الحديثة ، بل لقد أصبح الشك مذهباً من مذاهب العلم المعاصر بل لونا من ألوان التجديد والابتكار .

ولا ريب في أن شكوك الغزالي قد أفادته فائدة كبرى في
دراساته ، فقد علمته أن يناقش قبل أن يؤمن ، وعلمته أن
لا يقنع بما علم بل يطلب المزيد أبداً .

وبهذا كان الغزالي يجدد حياته العلمية على فترات متعاقبة .
كما دفعه الشك إلى عدم الرهبة من الخرافات المقدسة التي كانت
تسبح في كتب عصره ، أو التزييفات الدينية المحاطة بجلال
وهي في أذهان العامة . كما علمته عدم الرهبة أيضاً حيال الأفكار
والمذاهب التي تستند إلى أسماء خلدها الفكر والتاريخ . وبهذا
نجا من التقليد كما نجا من الخضوع لفلسفة الأغريق .

بل إن هذه الشكوك هي التي أعدته لتلك الوثبة الكبرى إلى
سما الإيمان ، وهي التي سهلت عليه عند ما حصل اليقين اعتزال
الحياة والناس ، لينعم بمتاع عزيز على الحياة والناس .

وعظمة الغزالي تمت بسبب وثيق إلى هذا الشك ، فهو الذي
حمله على دراساته الكبرى ومجادلاته العظمى واشتباها كأنه
المتعددة مع النحل والفرق والمذاهب ، فلما حصل عنده اليقين
كان يقين القوى الواثق الذي لا يداني ولا يماري .

كما أن هذا الشك كان علامة عقل كبير ، لا يؤمن بقيود

التقليد ، بل يؤمن بنفسه أولاً فيجبل ما يهدى إليه العقل ويرفض ما سواه .

ذلك الروح العظيم وذلك العقل الكبير ، وهذا الاطلاع الشامل ، وهذا الصراع بين العقل والروح ، بين المشاعر والأحاسيس المختلفة ، هو الذي أعد الغزالي لرسالته الخالدة .

فقد خرج الغزالي من هذا الصراع العنيف ، وذلك التجاذب بين الدنيا والآخرة طاهراً نقيماً كالسبيكة الذهبية تزيدها النار لمعاناً وإجلالاً ، احترق الغزالي فتطهر فكراً وعقلاً وقلباً .

كما ظهر تأثير تلك المرحلة واضحا في تكوين آرائه الاجتماعية والخلقية ، لأنه استطاع أن يدرس في نفسه تقلبات الأهواء وإغراءات اللذة ، ونعيم الطاعة ومتع العبادة ، وخبر التصادم بين شهوات النفس وميول القلب وأسرار الروح ، ولمس نقط الضعف في الإنسان وعرف كيف تعالج وبأى أسلوب تداوى .

ولما آمن بعد شك كان إيمان الواثق الدارس لا إيمان المستسلم المقدر ، فكان إيمانه هو الذي أتاح له تلك القوة الروحية التكبرى التي هيمن بها على عصره وعلى العصور التالية .

كما أن صقل نفسه وعقله بالمجاهدات أكسبه روحاً تحفوق

على القرطامن وتلمع بين الكلمات وتملك على القاريء أحاسيسه
وتمنحه متاعاً لقلبه ومتاعاً لعقله ومتاعاً لروحه، ندر أن يوجد عند
غيره من سادة القلم والفكر .

كان الغزالي بنشأته وتأملاته وتنقلاته وكشوفه الروحية
ودراساته العلمية أصلح قادة عصره لتلك الوثبة التي جدد بها
روح الإسلام في القرن الخامس .

الغزالي يهدف نحو الحق :

كافح الغزالي شكوكه كفاحاً قوياً ، ولم يستسلم لها استسلاماً
تاماً ، كما حدث « لدافيد هيوم » بل سعى إلى الإيمان جاهداً
وطلب الحقيقة في إلحاح ولهفة .

كان يحس ظمأً ملحاً إلى الإيمان بحقائق ثابتة ترضى عقله وترضى
قلبه ، وترضى روحه ، وترضى المثل العليا التي ينشدها في الحياة .
كان الغزالي يسهد ليله في طلب الهدى وتلمس أبواب النور ،
وكانت جفونه تذبل وتتألم ، وهو يبحث وراء الصواب ويترك
تلك الأبواب الخفية التي تتلمسها الروح الضالة في شوق ولهفة
علما تظفر بحكمتها وغايتها .

كان يحلم ويقامل ويطيل التفكير والتأمل ، لأنه يشعر
بفراغ الإيمان بملأ حياته فراغاً ، وببرودة الشك تमित حسه ،
وتमित عواطفه ، وتميت جوانب الخير في قلبه ، كان يحس
ضآلة الحياة بلا هدف ولا يقين .

وقد جعل دراساته للعلوم وسيلة من وسائل الاهتداء ، كما هي
وسيلة من وسائل المعرفة . وقد تدبر الفقه طويلاً وهو علم
الأحكام والنظم الإسلامية ، وكان ينشد فيه أكثر مما ينشد في
غيره ، الإيمان ، ولكنه لم يجد فيه سكينته نفسه ، لأن الغزالي
المشبوب الروح ، الحار العواطف ، لا ترضيه تلك المجادلات اللفظية ،
ولا تلك الأقيسة الجامدة . فهو لم يحس قلوب الفقهاء تحقق فيما
كتبوا ، ولم يلمس أرواحهم ترفرف فيما دبجوا ، وهو يريد
شيئاً يرضى الروح والقلب .

ودرس علم الكلام ليصل إلى الله ، وليقنع نفسه بأدلته ،
ويرضى قلبه بأخانه ونعمه ، وهو علم الشريعة وخالصة فلسفتها
وكنز مجدها ، ولكنه وجد الكلاميين يذكرون الله وصفاته
وكانهم يقيمون بناء هندسياً ، أو يجرون عملية من عمليات الحساب
في برودة الحاسبين وجهود عواطفهم وأحاسيسهم .

و درس الفلسفة وهي مفخرة العقل البشري ، ليرضى عقله بآياتها
 ثم يرضى يقينه برموزها ، ولكن الفلسفة زادته شكاً بافتراضاتها
 وأغازها وبقية الوثنية السابحة في معارفها ، بل زادته نفوراً من
 موازين العقل ، ونفوراً من الاهتداء بوساطة العقل .

ولجأ إلى التصوف على يشفي غلته الصادية ، فيذكر لنا
 « عبد الغافر » كيف أن أبا حامد بعد أن أوغل في دراسة العلم
 والتبحر فيه ، عافه وتبرم به ، ولم يجد فيه أية جدوى له ، فدار بعينيه
 يتلمس ما يجدي على نفسه ويسده لزاد الآخرة ، فاهتدى بهدى
 « الفارمذي الصوفي » وأخذ عليه ، واشترك في حلقات الأذكار
 معه ، ولكنه لم يبلغ من كل ما سلك شيئاً تطمئن به نفسه .

كان يمثل من جديد تلهف سيدنا إبراهيم الخليل وتعطش
 روحه إلى الإيمان ، فهو يتلمس الخالق في ضياء القمر ، ثم يشاهده
 آفلاً فلا يعجبه هذا الأقول ، بل يحجل الخالق عن أن تعتره
 صفة من صفات النقص والتحول ، ثم يرى الشمس فيفرح بها
 ويطمئن إليها ويظنها ربة الأكوان ، لأنها أكبر من القمر
 وأشد سناء وبريقاً ، ثم يراها غاربة فيججدها وينكرها ،
 ويبحث عن خالقه من جديد حتى أتاه اليقين .

وفي هذا التيه الحار الملتهب عثر الغزالي على رجل شديد الإيمان ، شديد الورع هو الإمام الصوفي « يوسف النساج » فصاحبه معه ، وأخذ يصقل روحه بالرياضة والمجاهدة حتى طرق معه باب اليقين والنور .

قال الغزالي :

« كنت في مبدأ أمرى منكراً لأحوال الصالحين ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخى يوسف النساج ، فلم يزل يصقلنى بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى فى المنام فقال لى يا أبا حامد : فقلت أو الشيطان يكلمنى ؟ قال لا ، بل أنا الله المحيط بجهاتك الست . ثم قال يا أبا حامد : زر مساطرك واصحب أقواماً جعلتهم فى أرضى محل نظرى ، وهم الذين باعوا الدارين بحبى » قلت : بعزتك إلا أذقتنى برد حسن الظن بهم ؟ قال : قد فعلت ، والقاطع بينك وبينهم تشاغلك بحب الدنيا ، فاخرج منها مختاراً قبل أن تخرج منها صاغراً ، فقد أفضت عليك أنواراً من جوار قدسى « فاستيقظت فرحاً مسروراً ، وجئت إلى شيخى يوسف النساج فقصصت عليه المنام ، فتبسم وقال : يا أبا حامد هذه ألواحنا فى البداية ،

بل إن صحبتني ستكحل بصيرتك بإئتمد التأييد، حتى ترى العرش
ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الأبصار
فتصفو من الأكدار طبيعتك ، وترقى على طور عقلك ، وتسمع
الخطاب من الله تعالى كموسى : « إني أنا الله رب العالمين » .

فكان هذا هو الفيصل ، وكانت تلك الرؤيا هي خاتمة الجهاد
النفسي ، وخاتمة الشكوك ، وبداية اليقين والإلهام ، والخيط الأول
في الفلسفة الغزالية الروحية .

كان التشاغل بالدنيا ، هو الحجاب الذي يجب على الغزالي
أن يمزقه . وكان حب الله والتفاني في عبادته ، هو قطرة النور
الأولى في هذا الفيض ، فتصوف وسلك الطريق وسار على الجادة
حتى كان طليعة القوم ودليل القافلة .

كان هذا الحب الإلهي هو إلهامه ودليله ورائده ، فأصبحت
رسالته عبادة ومحبة ، وقد صيغ الوجود وأفنى ذاته في جلال تلك
المعاني حتى غدا العلم لديه تعبداً ، لأنه يريه الله في كل شيء ،
ولأنه يجعل الطبيعة أمامه محاريب دائمة للصلاة والفكر .

وهكذا الجأ الغزالي إلى الاعتكاف والعزلة في جوانب المساجد
ومناراتها ، يعبد الله ويتأمل في آياته ، ويفنى حباً وغراماً .

جعل الغزالي الحب الإلهي هو غاية الحياة كما هو سر سعادتها ،
انظر إليه إذ يقول في توضيح السعادة :

« سعادة كل شيء لذته وراحته ، ولذة كل شيء تكون
بمقتضى طبعه ، وطبع كل شيء ما خلق له . فلذة العين في الصور
الحسنة ، ولذة الأذن في الأصوات الطيبة ، وكذلك سائر
الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ،
لأنه مخلوق لها ، وكل ما لا يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به
مثل الشطرنج إذا عرفها فرح بها ، ولو ينهى عنها لم يتركها ، ولم
يطلق عنها صبراً . وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى
فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة ، لأن لذة القلب المعرفة . وكما
كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر . ولذلك فإن الإنسان
إذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف المليك لكان أعظم فرحاً .
وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل
موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعته ؛
فلا معرفة أعز من معرفته ، ولا لذة أعظم من لذة معرفته ، وليس
منظر أحسن من منظر حضرته . وكل لذات شهوات الدنيا
متعلقة بالنفس ، وهي تبطل بالموت ، ولذة معرفة الله متعلقة بالقلب

فلا تبطل بالموت لأن القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر وضوؤه أكبر ، لأنه خرج من الظلمة إلى النور .
 فالغزالي يقرر في ثقة يقينية ووضوح وصراحة بأن الحياة الفاضلة السعيدة هي معرفة الله وعبادة الله ومحبة الله ، تلك هي الغاية العليا والهدف الأسمى ، لأن كل لذة سواها فانية ، وكل غاية سواها لاغية .

فإن كان « شوبنهاور » نلخص فلسفته كلها في كلمة واحدة هي جماع رسالته ، إذ يقول : « إن الحياة إرادة » . وإذا كان « نيتشه » جعل آيته الذهبية قوله : « الحياة هي القوة » فإن آية الغزالي ورسالته : « الحياة محبة وعبادة » .

وبذلك يلتقي الغزالي بالفيلسوف الروماني « سنكا » الذي كان يقول : « ولدنا خاضعين لأحكام الله ، فمن أطاع الله كان حراً آمناً سعيداً . ويتفق مع « أرسطو » في قوله : « الأشرار يطيعون خيفة والصالحون على حب » .

وقد أعد الغزالي نفسه لتلك الرسالة بالتطهر والصفاء والاعتكاف الكامل ، كان يتعبد تعبد العاشقين الواهين .

تم غادر محاربيه وخلواته ليزاحم الإنسانية في موكبها ويرشدها

إلى طريقها . رأى الغزالي الناس يسرون في مواكب الحياة
لا يدرون لماذا هم سائرون ، ولا يسألون لماذا يسرون .
شاهد القطيع البشري لا يعرف الراحة ، ولا السعادة ولا السلام ،
ولا يدرك نعمة الاستقرار الكبرى . شاهد دنيا يمزقها التعب
والبغضاء ، فنادى بمعاني الحياة المقدسة ، وأرشد إلى غاية الوجود
العليا . فأذاق المتعبين المجهدين الضالين رحيق الراحة ، ونعيم
الحبة ، وسحر السلام .

هل للمعرفة طريق باطنية غير الحواس الخمس . ؟

الكشف الباطني يشغل جانباً ضخماً من رسالة الغزالي ، إذ هو في طبيعة رجال الفكر الإسلامي ، بل العالمي الذين آمنوا بإلهامات الروح ، بل وجعلوا من تلك الإلهامات وسائل وغايات للإرشاد والهداية .

وقد اختلف المفكرون قديماً وحديثاً في طريق المعرفة ، وهل تتأتى عن طريق الحواس الخمس فحسب ؟ أم لها سبيل وطرق باطنية إلهامية أخرى ؟

فالماديون منهم لا يرون المعرفة باباً إلا الحواس الخمس المتصلة بالعالم الخارجي ويقررون أن لا مصدر فوق هذا تهبط منه المعرفة ، غير الخيال والتصور ، وهم شديداً التهمك برجال الكشف الباطني ومن سلك مسلكهم من أرباب القلوب أو الرياضة العقلية ، ذلك سبيل أصحاب المذاهب المادية من الفلاسفة .

أما الصوفية والروحانيون على اختلاف أديانهم وألوانهم ومذاهبهم فيقررون أن للعالم وسائل باطنية تصل بين النفس الانسانية والعالم الروحاني ، يلمسها كل من صفت نفسه من أدران

المادة وتخلصت من شوائب الحياة فيحصل من هذا الطريق على أسرار الوجود وخفايا الخلود، وحكم تعملو على الحواس الخمس والمعارف التي تدركها هذه الحواس .

والعلم الحديث القائم على الاستقراء والمشاهدة يعترف في صراحة بأن للمعرفة وسائل أخرى غير الحواس الخمس ، وأن هناك إلهامات روحية غامضة لا سبيل إلى معرفة أسرارها أو إنكارها أو التهمك عليها .

فسأله العقل الباطني ، والتنويم المغناطيسي الذي عجز الماديون عن إنكاره أو تشكيك النفوس فيه ، ما هو إلا ضرب من ضروب الأرواح السابجة التي يمكن للأرواح البشرية أن تلتقي بها ، وتتحدث إليها ، وترشف من نبعها ومعارفها ما شاءت من أسرار وفنون .

وقد دل العلم الحديث على أن المنوم تنويميا مغناطيسيا بعد أن تعطل حواسه يتقمص شخصية أرقى من شخصيته وتلبسه روح عاقلة واسعة الإدراك سامية المعارف ، تتحدث عن أدق المسائل وأغمض المسالك .

ومن مشاهدات العقل الباطني ما يلمح في كثير ممن نفذ إليهم

شعاعه في ناحية خاصة كالحسابين على البديهية ، وهم طائفة تلتقى عليهم أغمض المسائل الرياضية وأدقها والتي تحتاج إلى زمن كبير في التفكير والعمل ، فيجيبون عنها فوراً وهم لا يدرون ولا يعرفون كيف ولا متى حصل هذا ؟

وهناك أطفال يوقعون على الموسيقى قطعاً وألحاناً يعجز عنها أئمة هذا الفن وهم لا يعرفون كيف صنع هذا اللحن أو رتب ذلك النغم . !

وقد كتب الشاعر « موسيه » عن نفسه فقال « أنا لا أعمل ولكني أسمع فأفعل فكأن إنساناً مجهولاً ينجيني في أذني » . وكان « لامارتين » يقول « لست أنا الذي يفكر ولكن هي أفكارى التي تفكر لى » . وروى الشاعر « رينيه » أنه قد ينام غالباً وهو يعمل قطعة من الشعر لم تتم فيستيقظ فيجدها تامة في اليوم التالي عند ما يفكر فيها . أما سقراط فقد كان يسمع بأذنيه ما تلقيه إليه الروح .

بل إن هناك مذاهب فلسفية قديمة قامت بأسرها على المناجاة الروحية والاتصال بالله فأفلوطين في مدرسة الاسكندرية يرى « أن الجذب والفيض هما السعادة التي ليست وراءها سعادة » وما برثش

في القرن السابع عشر يقول باتصال مستمر بين العبد وربّه ،
فمعرفة الله ليست إلا فيضاً من الله ، وما يبدو منا من عمل خارجي
ليس إلا ظروفاً ومناسبات لتحقيق إرادة الله وبهذا يتلاشى
المخلوق في الخالق ، ويندمج الأثر في المؤثر .

وأرسطو الذي كان واقعياً في بحثه وطرقه ، ورجل مشاهدة
وتجربة في ملاحظاته واستنباطاته قد انتهى به الأمر إلى أن يفتن
دراسته النفسية على شيء من الفيض والإلهام .

ومن مذاهب العلم الحديث « مذهب المتأملين » الذين يؤمنون
بالتأمل ويفضلونه على القراءات والدراسات . فأصحاب المذاهب
الفكرية وقادة الرأي لديهم كانوا من المتأملين ، ولم يكونوا من
الذين أفنوا حياتهم في البحث والدرس .

والصوفية في الإسلام تحمل لواء الكشف الباطني ، وقد
ازدهرت مكاتب الفكر الإسلامي بتراث ضخمة للصوفية التي
حوت معارفها ينابيع من العلوم والفنون أثارت جدلاً وحواراً ،
ولا تزال تثير جدلاً وحواراً .

ولا ريب في أن الصوفية قد وجدت في الغزالي قائداً بارعاً
ومحامياً لبقاً وشارحاً ساحراً يأسر القاريء إلى صفوفه ويكسب

المعارك بفنونه ، فاستطاع أن يجعل منها علماً واضحاً مهذباً ، أو كما قال العلامة ماكيدولاند « إن الصوفية بلغت بفضلها ونفوذها وتأثيره مكاناً ثابتاً وطيداً في الإسلام . »

وتفوق الغزالي في تاريخ التصوف مرجعه إلى تفوقه العلمي ، فقد درس العلوم الفلسفية والتقليدية والجدلية والمذهبية دراسة لم تيسر لكاتب صوفي سواء تقدم به تاريخ الزمن أم تأخر .

وبذلك أصبح الغزالي هو كاتب الصوفية الأول . وبفضله وضحت أسرارها ومعانيها ، وتحددت أهدافها ومراميتها ، وكما حطم نفوذ الفلسفة في المشرق بعد سيادة وهيمنة ، أطلق علم التصوف في السماء يسبح خفاً في قداسة ونور وإجلال .

والغزالي يؤمن بأن معارف الباطن هي طريق الهداية ، لأنها اتصال مباشر بالحقائق الخالدة والأسرار النورانية ، وصلة مستمرة بين العبد وخالق أساسها المحبة المتبادلة والإلهامات المشرقة .

وقد أطلق الصوفيون على المعرفة الروحية لقباً يجعلها أصلاً من الأصول ، لا فرعاً من الفروع فأسموها علوم الباطن وأقاموا ثقافتهم وعبادتهم على أساسها .

وعلم الباطن عند الغزالي هو غاية العلوم وقد عرفه بقوله :

« إنه عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيتة من صفاته المذمومة ، وينكشف من ذلك النور ، أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتموم لها معاني مجمة غير متضحة فتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بإدراك حقائق علم الدنيا وعلم الآخرة . وهذا ممكن في جوهر الإنسان ، لولا أن مرآة القلب قد تراكم صدؤها وخبثها بقاذورات الدنيا . ولا سبيل لهذا العلم إلا بالرياضة والتعليم ، وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب أو لا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء إلا مع أهله ، وهذا هو العلم الخفي الذي أراده صلى الله عليه وسلم بقوله إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله ، فإذا إنطقوا به لم يجبهله أهل الاغترار بالله » .

« وأعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا ينكرها ذو بصيرة وإنما ينكرها القاصرون وقد قال صلى الله عليه وسلم : (إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وحداً ومطلقاً) وقال علي ، وأشار إلى صدره : إن هاهنا علوماً جمة لو وجدت لها حاملة ، وقال أيضاً : لو أردت أن أفسر الفاتحة بما أعلم لأحتجت إلى ثمانين بعيراً ، وقال ابن عباس في قوله تعالى (الذي خلق سبع سموات ومن

الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما) لو ذكرت تفسيره لرجتموني
وقال أبو هريرة: (حفظت من رسول الله وعاءين ، أما أحدهما
فبثنته موأما الآخر لو بثنته لقطع هذا الخلقوم) وقال الرسول
(ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في
صدره) . وقال سهل التستري : للعالم ثلاثة علوم ، علم ظاهر
يبذله ، وعلم باطن لا يسعه إظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه وبين
الله لا يظهره لأحد. فان قيل ، إذن الظاهر خلاف الباطن ، وفي
هذا إبطال للشرع ، كان الجواب أن الشرع عبارة عن الظاهر ،
والحقيقة عبارة عن الباطن ، وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه
ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحداً ،
وإنما هو اختلاف العقول والأفهام والظرف والمكان ، وإن
هناك من يدرك الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق
والفروق ، وذلك كما يتمثل للإنسان في عينه شخص في الظلمة
أو على البعد فيحصل له نوع علم فاذا رآه بالقرب أو بعد زوال
الظلام أدركه إدراكاً أوفى . »

الغزالي والتصوف

إن محمداً عشق ربه :

قبيل الوحي الحمدي كان الرسول يتقبل ويتعبد في غار حراء مطلقاً روحه للتأمل والتفكير في بدائع الله وآياته الكونية ، صارفاً قلبه عن متاع الحياة وشواغل الوجود ، ليمتفرغ بقلبه وعواطفه للمناجاة والعبادة وتلمس المعرفة ، حتى كانت العرب تقول « إن محمداً عشق ربه » .

وبداية الأنبياء هي نهاية ما اصطلاح على تسميتهم بالصوفية الذين يقولون إن المجاهدة والمحبة ، والفناء في معاني المحبة والعبادة تعد الروح للتذوق والتلقي ، وتوصل إلى العلوم والمعارف . فالمعارف في اعتقادهم كامنة في الروح البشرية أصيلة في مادتها لا دخيلة عليها . والتغلب على الجسد ، باعلاء مكانة الروح يمزق تلك الحجب ويرفع الظلمة التي تحول بين الروح والنور .

ويعبر الغزالي عن المعرفة بقوله : « إنها نور يقذف في القلب » . وقد كان الإمام مالك يقول « ليست المعرفة بكثرة الرواية ، ولكنها

نور يضعه الله تعالى في القلب » .

وقد أثار التصوف جدلاً وحواراً ، ولا يزال يثير جدلاً وحواراً في الفكر الإسلامي ، وأكبر الظن أن هذا الجدل ، أو هذا الحوار سيبقى خالداً ما بقي الفكر .

والذين نقدوا التصوف الإسلامي وجهوا نقدهم الأكبر إلى أهداف ثلاثة .

فالفلاسفة وأصحاب المذاهب العقلية عابوا طريقته إلى المعرفة وأنكروا أن يكون التفرغ والتجرد من متع الحياة والزهد في شهواتها ونعيمها سبيلاً إلى المعرفة ، بل سبيل المعرفة عندهم هو تغليب أرقى أجزاء النفس على الحواس ، وهم يقصدون بذلك قوى العقل وإرادته ، كما وصفوا الانتصار العقلي على الحواس بأنه أرفع مراتب السعادة كما يقول ابن رشد .

وهم بذلك يؤيدون الصوفية أكثر مما يفقدونها أو ينقصونها لأن في سعيهم إلى تغليب العقل نزوعاً إلى الصوفية وإن اختلف الوضع ، فنادوا بالعقل ، وناد المتصوفون بالروح .

وعلماء الاجتماع ورجال الأخلاق ، تهكموا بالصوفية وأساليبها وأسرفوا في التهمم والتجريح لأنها في نظرهم لا تصلح للحياة العملية

ولا يقوم بها نظام المجتمع ، ولا يمكن أن تتأسس على نظمها الزاهدة ، الأمم .

وتلك شهادة للتصوف لا عليه ، فهي تدل ضمناً على إنهم لا ينشدون مظهرآ في الحياة ولا غلبة في مضارها ، ولا يبغون مآربآ ولا يلتمسون مغنا من مغائها ، وإنما ينشدون طهراً وقرباً من الله وفوزاً برضوانه وعبادة للعبادة ، بل أن التصوف الإسلامي جعل العبادة أصلاً والمعرفة فرعاً .

والصوفيون لا يقولون إن طريقهم للناس جميعاً ، لأن المثالية لم تكن يوماً من الأيام شرعة مباحة لكل من يخطر بقدمين على الكوكب الأرضي .

وليس في استطاعة الناس جميعاً أن يكونوا ملوكاً ، ولا أن يكونوا فلاسفة أو أطباء مثلاً أو غيرهم من الطوائف والمذاهب العقلية والعلمية .

وأما الفقهاء وعلماء الكلام ، فقد هاجموا المتصوفة هجوماً عنيفاً ، بل غالوا في هجومهم حتى رموهم بالمروق والضلال ومفارقة الشريعة وظاهر السنة .

وهنا موقف دقيق ، ففريق من المتصوفة قد غالوا وأفرطوا ،

كجماعة الحلوليين الذين قالوا بوحدة الوجود ، وفريق آخر عبث
بظاهر الشرع وأفرط في السبحات والوثبات والاستغراقات حتى
تحلل من الفرائض والآداب .

ولكن التصوف الصادق لا يعترف بهؤلاء ولا هؤلاء ، بل يبرأ
منهم ويهاجمهم بأشد من هجوم الفقهاء أنفسهم .

ودستور الصوفية وصفاتهم يرسمه الغزالي ويوضحه بقوله في
كتاب ميزان « العمل » عند ذكره لعلامات السائرين إلى
الله فيقول :

« اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعى فيه كثير ،
ونحن نعرفك علامتين له ، العلامة الأولى ، أن تكون جميع أفعاله
الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على حد توقيفاته ،
إراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً ، إذ لا يمكن سلوك هذا
السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا
من واطب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهل
الفرائض ، والسالك لسبيل الله يعرض عن الدنيا إعراضاً لو ساواه
الناس كلهم لخرب العالم .

فإن قلت فهل تنتهي رتبة السالك إلى حد ينحط عنه بعض

وظائف العبادات ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل في هذه الأمور، فاعلم أن هذا عين الغرور وأن المحققين قالوا، لو رأيت إنساناً يمشي على الماء وهو يتعاطى أمراً يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان، وهو الحق»

وإذن فالغزالي يقرر بأن المتصوفين فئة خاصة، ولا يمكن أن يكون العالم على مثالهم وإلا خربت الدنيا وتغيرت معالمها وفسد نظامها.

كما أنه يربط التصوف بالشرعية رباطاً لا ينفصم، فيجعل التمسك بقواعد الشريعة بداية السالك، فإذا خالف الشريعة ولو سار على الماء وطار في الهواء فهو شيطان.

تلك هي الصوفية الكاملة التي يصفها الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال بقوله:

«إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليعيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم

يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم
وباطنيهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة
على وجه الأرض نور يستضاء به .

وماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها . وأول شروطها
تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب
بالكلية في ذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ، وأول هذه
الطريقة المكاشفات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة
وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد ،
ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق
عنها نطاق النطق .

التصوف الإسلامي ومراحله :

ينقسم التصوف الإسلامي إلى قسمين ، قسم يتعلق بالتربية
وتهذيب الروح ونبيل الخلق والتحلي بالفضائل والمحاسن الأدبية ،
وهو ما اصطلح على تسميته بعلم المعاملة ، وقسم يتعلق بالرياضة
الروحانية والعبادة وما فيها من نور وطهر وكشف وفيض .
والقسم الأول هو عماد فلسفة الغزالي الأخلاقية ، بل هو

عماد كتابه الأكبر « الإحياء » الذي خلد في تاريخ الفكر الإسلامي ، وخلد به الغزالي « كحجة للإسلام » بتوضيح فضائله وأنواره .

وهو مادة دسمة لرواد الأخلاق ، ومادة دسمة لمن يبغى إنسانية نبيلة مهذبة لا تعرف التخاصم والتناز بالآلقاب ، ولا تعرف الفسوق والجدال وسوء الخلق ، وفيه تتجلى وتبرز معاني الحديث الشريف « وإنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق » .

وأما القسم الثاني ، وهو قسم العبادة والفيض ، فأول شروطه كما يقرر الغزالي ، معرفة الكتاب والسنة معرفة عليا ، خلافاً لمن قال إن الفيض يأتي بالطهارة فقط ولو لم تكن هناك معرفة بالكتاب والسنة والفقة ، ويسمى هذا القسم في اصطلاحاتهم « بالطريق » وقد قسموه إلى أربع مراحل :

المرحلة الأولى مرحلة العمل الظاهر — أي مرحلة العبادة والإعراض عن الدنيا وزخرفها وزينتها ، والزهد في شهواتها ، والانفراد والعكوف على الذكر والاستغفار .

والمرحلة الثانية ، مرحلة العمل الباطني ، بتزكية الأخلاق

وتطهير القلب وتصفية الروح ومحاسبة النفس ومراقبتها، والتجمل بالأخلاق النبيلة والصفات الزكية .

والمرحلة الثالثة ، مرحلة الرياضة والمجاهدة التي يقول فيها الرسول « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » وبتلك المجاهدة يقوى سلطان الروح وتتحلر النفس من الأدران الأرضية ، فتمسو وتصفو حتى تنطبع فيها حقائق العالم وأسراره وينسكب في القلب نور ينكشف به جمال العالم وجلاله ودقائقه وأسراره ، فيبرق الحس ويتنبه الشعور ويستيقظ الإحساس ، فتكون حركة حياة في المشاعر عامة وتشعر تلك المشاعر بلذة عليا وعلوم نورانية تقوى في النفس حتى تصير صفة لازمة ، ويتوالى الكشف للنفس وتزاح عنها الحجب شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الأنوار العليا في عرفهم .

أما المرحلة الرابعة فهي مرحلة الفناء الكامل بوصول النفس إلى مرتبة شهود الحق بالحق وانكشاف ووضوح العوالم الخفية والأسرار الربانية وتوالى الأنوار واللذة الروحانية .

وتلك المرحلة هي مرحلة الخطر ، ومن أجلها نشبت المعارك

بين الفقهاء والصوفية ، ومنها نشأ التيه لكثير من الصوفية لأن
من نزل قدمه هنا ضاع إلى الأبد .

وتلك المرحلة لا تكتب ولا توصف لأنها خارجة عن نطاق
التصور العقلي ، والغزالي وهو علم الصوفية وكتابتها الأكبر لم
يتعرض لها ، ولم يشغل قلبه بها ، وإن كان لم ينكرها بل تركها
لأصحابها وأربابها .

ولكنه جال وأفصح في المراحل للثلاث السابقة ونثرها في
كتبه نثرًا أشبه بالنور والعطر واستمد منها روعة أسلوبه ، وروعة
تهذيباته ، وروعة مبادئه التي جعلت من الحياة محراباً أعظم
 لعبادة الله ودعوة عباده إلى الهدى والرشاد .

وقد تخصص الغزالي لآداب التصوف تخصصاً جعله نسج
وحده بين رجال الفكر الإسلامي فقد مزج الشريعة بالتصوف ،
كما مزج العبادات بهروح من التصوف اطلق فيها النور والروح
إطلاقاً يبعث في القلب نشوة الإيمان ، ورعشة الخوف وفرحة
الحسن المطمئن إلى واجبه المقدس .

ودارس الأخلاق عند الغزالي ، لا بد وأن يدرس التصوف ،

وأن يتذوق التصوف ، ثم يدرس أخلاقيات الغزالي فيتذوق
نبل رسالته الاخلاقية وجلال شأنها .

وان كان رجال التربية وأساتذة الفكر المثاليين يفكرون اليوم
في إيجاد طبقة من الإنسانية ممتازة كاملة الرجولة قوية الحيوية
سامية الخلق والفكر متلائمة التناسق ممن أطلقوا عليها اسم
(سو برمان) أى الرجل الكامل أو الخلق الكامل ، فقد وضع
الغزالي من قرون الصورة الحقيقية التامة لهذا النوع الممتاز من
البشرية السعيدة الطاهرة .

فإن المبادئ الاخلاقية النبيلة التى وضعها الغزالي وشرطها
للمؤمن لجديرة بايجاد مجتمع إنسانى ملائكى فاضل سليم من
الضغْن والتنازع بعيد عن الفعش والرزيلة .

وأن النظم التى سنّها الغزالي ووضعها للمجتمعات ، وطرق
اتصالها وتعاملها وعوامل اتحادها ومحبتها ، خليقة بانشاء دولة أو
عصبة من الأمم عالمية متحاببة متعاونة متفانية فى غاية نبيلة واحدة
تهدف نحو وجهة عليا يرفرف عليها علم المحبة ، ويوحدها قانون
الأخوة ويسعدها السلام الدائم للروح والقلب والأحاسيس .

ورسالة الغزالي الاخلاقية ، هى تطهير الجوارح تطهيراً كاملاً

عما يلوئها ، وتركية القلب حتى عن همسات الغل والحسد وأمانى
التفوق والغلبة .

هي الطهارة التامة الشاملة لاحاسيس الروح ونداءات البدن
ووثبات العقل ، فهو يرى أن الإنسان خلق للفضيلة ، وأن
السعادة والفضيلة صنوان ، وأن الإنسان الفاضل هو الإنسان
السعيد ، وبذلك حل مشكلة الإنسان والأخلاق والسعادة
حلا فاصلا كاملا .

رسالة الغزالي في الأخلاق ، هي ربط السعادة بالفضيلة ،
وبذلك تستريح النفس الإنسانية ، ويستريح المجتمع الإنساني ،
وتستريح الأمم البشرية ، لأن أهدافها ستتخذ بالفضيلة ، ولأن
الفضيلة ستكون طريقها إلى السعادة .

الصراع بين الغزالي والفلاسفة

إن الصراع الذي أثاره الغزالي وحمل لواءه ضد الفلسفة والفلاسفة ليحتل من الثقافة الإسلامية وتاريخ الفكر العام جانباً خطيراً ، فقد انتظم في الإهتمام به رجال الفكر في مختلف العصور والأزمان على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم .

فقد كان للفلسفة في الشرق سيادة وجلال ، بل لقد كادت الفلسفة أن تحل مكان الدين ، فاستحوذت على الذهن والتفكير واتسعت التصورات ، وانتشرت التأملات الفلسفية وجرى الناس وراء النظريات والجدل جرياً أتعبهم وأتعب معتقداتهم وأتعب الحياة معهم .

ولا شك في أن علماء الكلام الإسلاميين قد استفادوا من الفلسفة . فالإمام الأشعري وهو ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة أحدثوا أكبر انقلاب فكري في تاريخ الإسلام قد استعان بكثير من النظريات العلمية الفلسفية لتدعيم علم الكلام وتقوية حججه وطرائق بحثه .

كما أثرت الفلسفة في أدلة الفقه وطرائق بحثه ، وأثرت أكثر

من هذا في رجال العقل الإسلامي. فقد بذل الفلاسفة الإسلاميون كثيراً من الجهود في سبيل التوفيق بين الفلسفة والدين فابتدعوا مذهباً وسطاً في علوم ما وراء الطبيعية ، وابتكروا نظريات تتأرجح هنا وهناك للمصالحة والتوفيق بين فلسفة الإغريق ونظم الإسلام .

ورغم هذا فقد رهبها رجل الفقه ، كما رهبها رجل الكلام ، فحاربوها وجادلوها وابتدعوا لحربها علوم التوحيد .

وجاء الغزالي وطبول الحرب تدوى باسم الدين ، وحماية الجماهير من لوثة الوثنية والتضليل والتشكيك العقلي .

جاء والنزاع بين الفلسفة والدين هو موضوع الساعة ، كما هو موضوع الساعة أبداً في كل العصور والدهور فمشكاة العقل والدين مشكاة خالدة ، ما ديم هناك فكر يسبح ، ووحى يتبع .

وكان لا بد للغزالي من خوض المعركة ، فقد اجتمعت في يديه أسلحة لم تجتمع لغيره ولقلمه جولات يترقبها جيله ويرمقها بالإجلال والإكبار ، وهو رجل قتال وكفاح ، يلبي الصيحة ويحمي حماه .

أرسل الغزالي صيحة لا تعرف المجاملة ولا اللين ، ففض في

صراحة وعنف النزاع بين العقل والعاطفة ، والوحى والفلسفة
وأحدثت تلك الصيحة دويماً ، فهي صيحة جديدة النغم
ساحرة اللحن قوية اليقين فقد كان الغزالي هو المفكر الأول
والوحيد الذى لم يكتب مثل علماء الكلام باقتباس عدة مباحث
متفرقة للفلاسفة ثم نقضها . بل قام لهدم البناء كله . ذلك البناء
الذى أنشأه الأغر يق وهذبه الفلاسفة المسلمون .

ولم يكن الغزالي هادماً فحسب ، بل أقام من أنقاض البناء
الفلسفى الذى هدمه على رهوس أصحابه صروحاً من الفلسفة
الأخلاقية الدينية لا يزال يعمرها المسلمون إلى اليوم .

والغزالي لم ينكر الجانب العقلى والرياضى من الفلسفة ، بل
أعترف بهما وتركهما الموازين العقلية وإنما حطم جانب ما وراء
الطبيعة وحطم معه الفلاسفة بتهم المروق والزندقة .

والغزالي بعد ذلك كما يقول العلامة ماكدولاند ، أول من
أدنى الفلسفة وقرب بحوثها الدينية أو الإلهيات من متناول
الذهن العادى وتعاطى الناس عامة لها ، وكانت من قبله
مخوفة بالأسرار مكتنفة بالغموض والرهبة ، كأنها علم
لاهوتى ، لا يدركه غير أصحابه والراسخين فيه لما كان

لاصطلاحاتها من الغرابة على الأذهان ، حتى لتقتضى معرفتها
 الدرس الجهد ، والاستظهار الشاق ، وكان من الصعب
 تفهمها ودراستها ، فقد انتقلت النظريات والمذاهب والأفكار
 اليونانية بأكثر مصطلحاتها وتعبيراتها إلى السريانية أولاً ثم إلى
 العربية ، وأوجب هذا الانتقال تصحيحاً وتحريفاً عند التعريب ،
 وكان لا بد من طول دراسة وتقص متواصل ، قبل معرفة
 مصطلحات الجدل والإلمام بعلم المناظرة

فلما جاء الغزالي مزق الحجب وأطلق النور في الظلمات ، فإن
 كتابه تهافت الفلاسفة لم يكتب لطلاب الفلسفة وإنما كتب
 للجاهل كافة ، وقربت مناهله وموارده لسائر الوراد والقاصدين
 وهذا ما أغضب ابن رشد فاتهم الغزالي بأنه أباح العلم للعامة
 وأفقدته ارستقراطية .

والحق أن الغزالي كان له فضل إنزال الفلسفة من عليائها فقد
 جعل أسرارها علماً واضحاً لكل قارئ ، وتلك قوة لم تعرف في عالم
 الفكر إلا للغزالي ، وقد ألف كتابه «مقاصد الفلاسفة» لهذا الغرض
 وأوضح غايته في مقدمته بقوله

« أما بعد فإني التمت كلاماً شافياً في الكشف عن تهافت

الفلاسفة وتناقض آرائهم ومكان تلبسهم وأغوائهم ولا مطمع في إسعافك إلا بعد تعريفك مذاهبهم ، وأعلامك معتقدتهم فان الوقوف على فساد المذاهب قبل الإحاطة بمداركها محال بل رمى في العمياء والضلال ، فرأيت أن أقدم على بيان تهاقهم كلاماً وجيزاً مشتملاً على حكاية مقاصدهم في علومهم المنطقية والإلهية من غير تمييز بين الحق والباطل ، بل لا أقصد إلا تفهم غاية كلامهم من غير تطويل .

وحيثما فرغ الغزالي من تلك الرسالة ، عمد إلى أخرى أشد صعوبة وأكثر التواء ، وذلك هو تصديده لكل هؤلاء والتمييز بين حقهم وباطلهم .

درس الغزالي المذاهب الفلسفية كافة ، ثم لخصها وركزها في عشرين مسألة رئيسية استطاع أن يزيدها في قوة وتفق تزييفاً جر عليه عدا الفلاسفة عدا ملتهم قاسياً حتى أن ابن رشد كان يلقبه « بالجاهل الشرير » .

ولكنه من الناحية الأخرى رفع له مكاناً في الشرق ، وخاصة بين الدينيين لم يستطع باحث أن يراحمه فيه رغم توالي السنين والقرون .

ولا جدال في أن الغزالي قد نجح في حملته نجاحاً باهراً لمكانته العالمية ولسلطانه الواسع على النفوس والقلوب ، نجاحاً نال من أثره قوياً واضحاً في الشرق ، إذ أصبح اسم الفلاسفة فيه حليف الزندقة والإلحاد .

ولقد أنتجت تلك الحركة ثماراً طيبة لأنها خففت من غلواء المذاهب الفلسفية وأبعدت فتنتها عن كثير من العقول ، إلا أنها كانت كما يقول الغزالي في موازينه العلمية : « إن لكل شيء وجهين وجه خير ووجه شر » لأنها أنتجت من الناحية الأخرى فكرة متطرفة مسرفة في التطرف ترمى إلى النفور من الفلسفة طالحها وصالحها بلا تمييز أو تفكير .

وبلغ من الغلو في تلك الناحية أن حرم كثير من علماء الدين البحوث العقلية ، بل اتخذ هذا التحريم حجة في المناقشات ودحض البراهين ، حتى أصبح شعاراً للجامدين من الفقهاء رمى المفكرين بالزندقة والإلحاد .

والغزالي لم يقصد هذا ولم يرم إليه ، وإنما جرح من الفلسفة كل ما يتعارض مع أصول الدين وقواعده ، وأما ما عدا ذلك

فقد دافع عنه بجرارة وغذاه وأوضحه ، ونشره على الخافقين في
بحوثه ودراساته .

يقول الغزالي في مقدمة كتابه «تهافت الفلاسفة» ما خلاصته :
« إن الفلاسفة من عهد أرسطو إلى عهدنا هذا قد بنوا مذاهبهم
في الإلهيات على ظن وتخمين ، من غير تحقيق و يقين ،
ويستدلون على صدق علومهم الإلهية بظهور العلوم الحسابية
والمنطقية ، ويستدرجون بهذا ضعفاء العقول . ولو كانت علومهم
الإلهية متقنة البراهين نقيية عن التخمين كعلومهم الحسابية
لما اختلفوا فيها ، كما لم يختلفوا في الحسابية والمنطقية .

وبهذا المنطق القوي الواضح السائغ ناقش الغزالي الفلاسفة
فخطم ونقض جميع ما ديجت أفلامهم في الإلهيات وعلوم
ما وراء الطبيعة .

الغزالي ينشد الحق ولا يتقيد بالمذاهب

بعد أن طوف الغزالي في آفاق العلوم التقليدية والعقلية
 والمذهبية ، وبعد أن صقل روحه بالمجاهدات والكشف الباطني ،
 استن لنفسه نهجاً مستقلاً فهو طالب حق وحكمة ، شعاره :
 « لا تعرف الحق بالرجال ، بل اعرف الحق تعرف أهله » وبهذا
 ابتدع الغزالي مذهباً فريداً بين مذاهب الفكر الإسلامي .
 فهو لا يتقيد ولا يقيد نفسه بالانتساب إلى فرقة ما ، أو
 مذهب خاص ، أو يربط تفكيره إلى مركبة جماعة من جماعات
 العلم يفكر بتفكيرهم فيصوب ما يصبون ، ويخطئ ما يخطئون .
 بل هو ينشد الحق والحق وحده أينما وجد ، وأى لسان به
 نطق . فيأخذ من آراء المتكلمين ما يؤمن به ، ومن آراء الفقهاء
 ما يعتقده ، بلا عصبية أو جود . فهو يبيح لنفسه الاجتهاد ،
 بل يبيح لكل إنسان الاجتهاد ليكون صاحب مذهب ورأى
 لا عبداً من عبيد التقليد والمذاهب .
 وقد وضع الغزالي مذهبه الفكري بقوله في كتابه (ميزان
 العمل) :

« لعلك تقول إن كلامك في هذا الكتاب ، انقسم إلى ما يطابق مذهب الصوفية ، وإلى ما يطابق مذهب الأشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام إلا على مذهب واحد . فما الحق من هذه المذاهب ؟ فإن كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وإن كان بعضه حقاً فما ذاك الحق ؟ ثم يجيب عن هذا بقوله :

« اطرح المذاهب ، فليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فاطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة أعمى مقلد ، وإنما خذ الحق أينما وجدته ، وفي أي ناحية كان ، واطلب الحق بالنظر لا بالتقليد — فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أينما وجدها — .

وتلك رحابة فكرية من الغزالي لم تعرف لغيره من رجال الدين ، فهو ينشد الحق لا المذهب ، ويعرف الحق أولاً ثم الرجال ، لا الرجال أولاً ثم الحق .

وهو يرى أن العصبية لمذهب ما تحرم الإنسان من جنس ثمرات طيبة في غيره . فليس مذهب ما مهما عاديناه وخاصمناه يخلو من فكرة رائعة ، ونظرة صائبة ولو في جانب واحد .

ومذهبنا الذي نعتنقه مهما أحببناه وقدسناه ، لا يخلو من
ضعف ولو في فكرة واحدة من طرائق بحثه وعرضه ، فلم نقيد
أنفسنا ، والعلم كالفكر يجب أن نحرره من العصبية ، فننشده
في كل أفق ونطلبه في كل نبع ؟

وهي فلسفة غزالية مبتكرة في التفكير الإسلامي . بل هي
فلسفة غدت اليوم من سمات العلماء المجددين .

جهاد الغزالي

بعد أن تطهر الغزالي في عزلته ، وبعد أن أعد نفسه إعداداً عقلياً وروحياً لرسالته الإصلاحية ، وبعد أن آمن بأن لديه مسببات النجاة لهؤلاء الذين يسرون في الحياة بلا غرض ولا غاية ولا هدف نبيل .

يسرون تملؤ وجوههم علامات التعب والأسى ، وتزخر قلوبهم بشهوات النفس والهوى وتموج عقولهم بالترهات والأكاذيب والضلال ، فارق اعتكافه وعزلته ليحمل راية الجهاد راية الأنبياء والمصلحين والقادة .

فهو يعتقد أن الاعتكاف والعزلة والنجاة بالنفس أوهى درجات اليقين والإيمان ، أما الجهاد في سبيل الخير والإصلاح وتهذيب الإنسانية وهديتها فهو رسالة الأنبياء ، ورسالة العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء والحفظة على تشريعهم ، فإن كان الورع والزهد عبادة فالجهاد لإصلاح حالة المجتمع هو أسمى حالة التقوى بل هو روح العبادة ونورها وعلامة اليقين والإجلال لها .

فارق الغزالي عزلته ليواجه الحياة برسالته ، وهو يعلم أن

دون تلك الرسالة أهوال وعقبات ولكن الإيمان لا يروعه هول، ولا يفعل من عزمه مشقة الطريق ووعورة المسالك .

نظر الغزالي إلى المجتمع في عصره فرآه ضعيف الإيمان ، قليل العمل للآخرة ، فراح يتقصى الأسباب حتى إذا أحاط بها حصرها في أربعة أمور رئيسية :

(١) الخوض في الفلسفة (٢) الخوض في طريق التصوف

(٣) الانتساب إلى دعوى العلم (٤) سوء أخلاق العلماء

وقد أوضح الغزالي تلك الأمور بقوله :

« أخذت أسأل المقصر ، مالك تقصر؟ إن كنت مؤمناً بالآخرة فلماذا لا تستعد لها؟ وإن كنت لا تؤمن بالآخرة وإنما لا تستطيع المجاهرة فأنت منافق ضائع الرأي! فكانت الأجوبة كما يأتي .

فمن قائل يقول — هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك . وفلان من المشاهير بين الفضلاء والعلماء لا يصلي . وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأمواال اليتامى ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهود وهؤلاء قد ضلوا بالقدوة السيئة .

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم أنه قد بلغ مبلغا ترقى به عن الحاجة إلى العبادة .

وثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة . ويزعم أن مشايخه قد فعلوا وقد أفتوا ، وهؤلاء ضلوا عن التصوف .

ورابع اشتغل بالعلوم والمذاهب ، فيقول الحق مشكل ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأى أهل الرأى ! ؟

وخامس يقول : أنا أعظم من أن أقلد ، فقد قرأت الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة وقد بلغت مرتبة من الحكمة ، والمقصود من العبادة ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل تحت نير التكليف ، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة .

حتى أن بعضهم كان يشرب الخمر ويقول : إنما نهى عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتي متمحز عن ذلك وإني أقصد بها شحذ خاطري ، حتى أن ابن سينا كتب « أنه عاهد الله أن لا يفعل كذا وكذا ولا يشرب الخمر تلهياً بل تداوياً وتشافياً » .

فلما رأيت ذلك اعتزمت ككشف أسرارهم وتحطيم تلك

الأصنام من العلماء والفلاسفة لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم
أعنى الصوفية والفلاسفة ودعاة الفقه والعلم .

وإذن ففساد القادة ، وضلال الاتباع ، والجهل بالشريعة ،
كانت دوافع الغزالي في تركه العزلة ، وإعلانه الجهاد ، وقيامه
بالدعوة إلى تجديد الروح الإسلامي ، والآداب الإسلامية
والأخلاق النبوية .

وفي سبيل تطهير المجتمع الإسلامي رفع الغزالي لواء رسالته
الأخلاقية وهي من أجل جوانب رسالته العامة .

ولكى ندرك عظمة الغزالي في جهاده يجب أن نتصور فساد
عصره وبلبلة الأفكار فيه ، وفساد العلماء والفقهاء المتصدرين
للقيادة والإرشاد ، هؤلاء الفقهاء الذين يصفهم الغزالي فيقول :

« ولو سئل فقيه عن معنى الإخلاص أو التوكل أو وجه
الاحتراز من الرياء ، لتوقف فيه ، ولو سأله عن اللعان والظهار
لسرد عليك مجلدات من التفريقات الدقيقة التي تنقض الدهور
ولا يحتاج إلى شيء فيها ؟ وهو لا يزال يتعب ليلاً ونهاراً في
حفظها ودرسها ويفعل عن روح الإسلام ومعانيه .

وإذا روجع فيه ، قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض

كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه .

ولو كان غرضه الحق في تعلم فرض الكفاية لتقديم عليه فرض العين . بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفاية ، فكم من بلد ليس فيه طبيب إلا من أهل الذمة ، ثم لا ترى أحداً يشتغل به ويتهاونون على علم الفقه لاسيما الخلافيات والجدليات ، والبلد مشحون من الفقهاء .

فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس متيسراً به الوصول إلى تولى الأوقاف والوصايا وحياسة أموال اليتامى ، وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء .

تلك أخلاق العلماء والفقهاء في عصره وهذا مبلغها من الفساد وفهم الشريعة والأخلاق ، وإذا فسد العلماء والفقهاء فسدت الجماهير وفسدت الصورة النبيلة التي للدين .

وقد استطاع الغزالي أن يظفر بنصر كامل ، بل استطاع أن يدفع قافلة الحياة في عصره إلى وجهة جديدة ، وأن يحمل الناس

على نهج جديد لا تزال آثاره تسود عصرنا وتهيمن على توجهاته
رغم القرون والأحقاب .

يقول العلامة ماكدولاند « إن الغزالي عاد بالناس من الجري
في أثر النظريات والجدل والفقہ والمنطق والعلوم الدينية واختلاف
المذاهب والطرق إلى الحياة الحقيقية والاتصال للملابس للدين
والسنة والكتاب بل إلى روح الدين ذاته وجوهره ولبابه دون
القشور والسطوح والمسائل النظرية الكثيرة العقد ، وأن ما وقع
في أوربا عند تحطيم نير الفلسفة المذهبية في القرون الوسطى ، بل
أن ما هو اليوم بالذات واقع بسبيل هذا ونحوه قد وقع بالفعل في
الإسلام لعهد إمامه الغزالي وزعامته الفكرية وقيامه بدعوته
وأدائه رسالته .

وقد كان في وسعه أن يكون فقيهاً مع الفقهاء ومذهبياً مع
المتذهبين ، ولكن طريقته في الحق وفضله ينجصران في توفره
على إبراز الكتاب والسنة وجعلهما أساساً علمياً لا تحول عنه
ولا تبديل له ؛ وقد ظهر دائماً أن الانطلاق من البحث النظري
عن الحقائق والجدل فيها والحوار المقيم عليها إلى الأخذ بهذه
الحقائق الأساسية في غير جدل عقيم وبحث غير مجدهو في الواقع

الفرار من النزعة المذهبية والتلخص من نيرها المستبد الأليم .
 وقد حاول الإمام أبو الحسن الأشعري ذلك بالذات قبل
 الغزالي بمائتي سنة كما حاوله ابن رشد كذلك بعد مائة سنة من
 رحيله ، وكما فعل في عهدنا هذا « اسبرنجر » إذ أراد أن يدخل
 حياة جديدة على الإسلام في الهند فلم يوفق وعاد فاشلا ، ونحسبه
 لم ينجح لأن المهمة كانت شاقة عصبية عليه ، أو لأنه لم يكن له
 من الإيمان والشخصية ما كان للغزالي من ذلك كله .

ولا جدال في أن الغزالي كما يقول « ماكدولاند » قد انتصر
 بإيمانه وشخصيته ، وما كان لرجل أن ينتصر في تلك المعركة
 إلا بإيمان لم يهن ، بل يلهم وينتصر ، وشخصية تحمل جيلها
 على الإجلال والإيمان .

دستور الغزالي الخلقى

الغزالي أكبر كاتب خلق عرفه الفكر الإسلامى ، بل لعله أكبر كتاب الأخلاق الدينية فى العالم .

فقد جعل الأخلاق رسالته العليا ، وربط الأخلاق بالدين ، رباطاً لا انفصام له ، بل جعل الأخلاق هى روح الدين ، والغاية منه ، وأضفى على العبادات ، أصولها وفروعها ، أواناً خلقية تحببها إلى النفوس ، وتعطرها فى القلوب ، وتملاً الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً .

فلاصلاة آدابها التى هى الروح والمهدف ، وللصيام برنامج الخلقى الذى لا يستقيم بدونه ، وللنفس والقلب ولكل جارحة من الجوارح ، وخاطرة من الخواطر صفة خلقية ، ودعوة إلى تطهير وتركية ، حتى همسات القلب ، وسوايح الفكر ، يقيدها الغزالي وينظمها ويضع لها دستور الكمال .

وتساير أخلاقيات الغزالي الإنسان فى ما كله ومشربه ومنامه وحله وترحاله ، وتلازمه فى تصرفاته مع الأصدقاء والأهل والزوج والولد والمجتمع والعالم .

فالأخلاق عند الغزالي شريعة شاملة للحياة بأسرها، شريعة لها مثلها العليا، وأهدافها السامية المرتفعة إلى السماء، ثم هي أيضاً تعيش معنا على الأرض متصلة اتصالاً وثيقاً بكل حركة من حركات الروح والقلب والعقل والبدن .

وقد عاب الماديون على الغزالي أن فلسفته الخلقية فلسفة سلبية لا تتلأم الحياة العملية ولا تصلح في معترك الحياة وزحام الوجود، ولا تُعَدُّ صاحبها للكفاح والنضال والغلبة والسيادة .

عاب الماديون على الغزالي هذا، وكانهم يريدون أن يسمعوا من الأخلاق رنين السيوف لاهمسات السلام، وصيحات القتال لنداء الرحمة والوئام .

عابوا على الغزالي فلسفته الأخلاقية لأنها تريد أن تبتدع مجتمعاً فاضلاً معطراً بصفاء الروح وطهارة القلب والحس والجوارح، طهارة لا تعرف الغل والحسد، ولا تقر الغش والتزييف ولا ترضى التواثب والتلاحم وتنكر الصراع والنزال .

وعابوا على الغزالي فيما عابوا أنه مزج الدين بالأخلاق والروحانيات بالفضائل، ولم يمزجها بعلم النفس، ولم يقيم صروحها

على نداءات الجنس وضرورات الشهوة ودوافع المجد والنصر في الروح البشرية .

عابوا على الغزالي وأسرفوا ، ثم عابوا وأسرفوا ، فأخطأوا وأسرفوا في الخطأ لأن أخلاقيات الغزالي لا توزن بتلك الموازين الجامدة المتشائمة التي صور أصحابها الناس بألوان من الشهوات وألوان من الغايات وألوان من النزوات لا يستقيم معها خلق ولا يسود فيها دين .

أما الميزان الصادق الذي يقام في ساحة العدالة الفكرية عند دراسة تلك الأخلاق فهو ميزان الآداب السماوية ، وميزان المثالية الخلقية .

فالغزالي حينما وضع دستور الأخلاق كان يمسك بيمنه ميزان عدل وهدى ، الأخلاق عنده هي كل ما يرفع النفس ويسمو بالحياة إلى مناطق النور والصفاء ، والردائل لديه هي كل ما يفسد الجسم والنفس والعقل ويبعد الروح عن مناطق النور والصفاء .

فإذا دعا الغزالي إلى عدم التكالب على الرزق والتفاني في الحرص على متاع الحياة وذهاب النفس حسرات على مباحجها ،

فذلك لأنه يحترم المال والجاه والسيادة إذا كان في الفوز بها
صفة من تلك الصفات التي تمس الخلق القويم .
وإذا نادى بكف النفس والعقل واليد عن مطامع الحياة ،
وكف النفس والعقل واليد عن المتاع الزائل والمجد الزائف ،
والصراع الباطل ، فليس لنا أن نقول للغزالي إن هذا الزهد في
الحياة يقتل بواعث المجد في النفوس ، ويخمد شعلة التوثب
والفوز في القلوب .

فالغزالي لم يتخيل الدنيا ملحمة بين كباش تتناطح ، وإنما
تصورها حناناً ورحمة وطاعة وعبادة ، فالجد عنده مجد النفوس
المطمئنة المتحابة ، والنصر لديه هو الفوز على النزوات والشهوات
والتطهر من الرذائل المهابطة إلى الظلمات .

نظر الغزالي إلى الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية ، وعبادة
لله لا للدرهم والدينار ، والتغالب والتفاخر والتناذب بالألقاب .
كتب الغزالي أخلاقياته للمجتمع الإسلامي الفاضل الذي
يؤمن به ويدعو إليه ، ومن ثم ابتدع له أخلاقاً كاملة على
أسس دينية وطاعات روحية وقلبية .

فليس لنا أن نقول له إنك أهملت ما كشف العلم الحديث

من علوم وفنون ، فالعلم الحديث يقرر أن الجنس هو المحرك الأول للوجود والملون الأول للأخلاق والبواعث القلبية والنفسية ، وأنت تقسو على الجنس وتعالى في قمعته وتهذيبه وتعالى في عدم الاعتراف بسلطانه وجبروته .

وليس لنا أن نعترض عليه بأن الحياة هي القوة ، والتوثب للمجد ، والتطاول والتفاخر بالمال والجاه ، وما إلى المال والجاه من متاع وسلطان .

وليس لنا أن نقلل من شأن أخلاقيات الغزالي لأن روح الزهد والقناعة تترقق واضحة بين أسطرها ، وعطر المحبة والعبادة يتضوع من شمائلها وأعطافها .

الأخلاق عند الغزالي نشيد لم يترك وجهة من وجهات الحياة إلا ألقى عليها النور والرحمة والإيمان والسلام .

الأخلاق لديه صفات مثالية ، أو إن شئت فهي محاولة صادقة لإنشاء إنسانية فاضلة وخلق مجتمع بشري سعيد .
أسلوبه وطريقته :

يقول العلامة « ما كدولاند » « إن الغزالي في وعظه وأخلاقياته وتعاليمه النفسية عاد فأدخل عنصر الخوف ، فقد جعل في كتابه

المنقذ من الضلال وغيره من الكتب يؤكد وجوب إلقاء الرعب والوجل في النفوس العامة ، منادياً بأن الأمر لم يعد يستوجب الملاينة والمصانعة والرفق والتأميل والتفاؤل ؛ بل لقد وجب أن تبين للناس حقيقة الجحيم وعذابها الأليم ، فقد أحسها هو في نفسه وشعر بها في أعماقه ، وقد رأيناها كيف تجرد من المتع وأخضع النفس للزهد والنسك والحرمان ، وجعل الخوف من النار الباعث الأكبر على هدايته واجتنباه الضلال والهوى .

كانت طريقة الغزالي التي ترمى إلى التهويل ؛ وإلقاء الرعب في القلوب ملائمة لعصره الذي لم يعد الأمر فيه كما يقول ماكدولاند يستوجب المصانعة والملاينة ، ذلك العصر الذي أسرف على نفسه في الشكوك والأوهام ، وأسرف على نفسه في الترف والملاذ ، وأسرف على نفسه في التنابد والخصام ، فقاوم الغزالي تلك الروح المسرفة العابثة بأسلوب ملتهب حار يبرق فيه التهديد والوعيد ، وتتمثل فيه أهوال العقاب والثواب .

وأسلوب الغزالي فوق عنفه وقسوته يخفق على القراطس نابضاً بالحياة ، ويتسلل إلى القلوب مناجياً الضمائر والأحاسيس ، حتى يشعر قارئ الغزالي بروح يتكلم في أعماقه ، ويحس

شخصية الغزالي تنافيه وتلازمه وتسيطر على أفكاره واتجاهاته .
والغزالي كاتب مصور بارع الخيال يمتلك في يسر وبساطة
حاسة الخيال الفني ، فهو فنان في أخيلته ، فنان في تصويره
فنان في أمثلته وتشبيهاته .

انظر إليه كيف يشبه من يحسب أن المحسن أحسن باختياره ،
إنه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على بياض القرطاس يحصل
من حركة القلم فتضيف ذلك إلى القلم إذ حدقتها الصغيرة الضعيفة
لا تمتد إلى الأصبع ، ومنها إلى اليد ، ومنها إلى القدرة المحركة
لليد ، ومنها إلى الإرادة ، ومنها إلى المعرفة ، ومنها إلى صاحب
القلم والقدرة والإرادة .

فأسلوب الغزالي في أخلاقياته يستمد قوة عرضه وقوة تأثيره
من حاسة الخيال الفني ، فإذا تكلم عن فضيلة من الفضائل عمد
إلى ذكر ما ورد في حمدها من الآيات في اختيار بديع بارع ،
ثم يسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم يعقب بالآثار ،
وينطلق بعد ذلك مؤيداً قوله بالقصص والأمثال التي تأسر قلب
القارئ ، وتصور في نفسه محبة تلك الفضيلة ومالها من
خطورة وجلال .

فإذا تكلم عن رذيلة ، من الرذائل ، طرق هذا النهج أيضاً مضيفاً إليه إلهاب الكرامة النفسية في القلوب ، وتنفير تلك الكرامة من أن تندس برذائل حيوانية حقيرة .

أما ميزة أخلاقيات الغزالي الكبرى فهي صلاحيتها الخالدة لكل جيل وعصر ، وصلاحيتها الخالدة لكل قارئ على اختلاف الثقافات والبيئات أسلوباً ومعنى .

تربية الخلق أو العادة :

وللعادات عند الغزالي تأثير كبير في تكوين الخلق ، حتى إن الخلق بحكم العادة يصبح عبارة ، عن هيئة في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ، من غير حاجة إلى التفكير والروية ، فالخلق عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، ولهذا السبب نرى الغزالي ، يتشدد في الأمور الطفيفة المتعلقة بالأخلاق ، لأنه يؤمن بأنها ستكون مقدمة لما هو أشنع ، وبأنها ستصبح صورة لازمة .

وهو يقرر ، أن النفس إذا كانت تستلذ الباطل وتميل إليه بالعادة ، فكيف لا تستلذ الحق ، لوردت إليه والتزمت المواظبة عليه

كما يقرر أن النفوس بفطرتها خيرة تميل إلى الخير ، أما هذا الميل إلى الأمور الخسيسة فهو أمر خارج عن الطبع ، يضاهاى الميل إلى أكل الطين وقد شاهد الغزالي قوماً يستطيبونه بحكم تغلب العادة والاستمرار عليها .

إن النفوس خلقت بفطرتها تهوى الحكمة وحب الله ومعرفته وعبادته ، وهو أمر أصيل لا دخيل لأنه وحى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وميل غريزي كالميل إلى الطعام والشراب ، وهو ضرورى للقلب لأنه أمر ربانى .

أما الميل إلى مقتضيات الشهوة فغريب عن ذات الإنسان وعارض على طبعه ، وإنما أصبح مألوفاً بالعادة السيئة ، ولهذا أصبح الطفل أمانة فى عنق ذويه ، فليتمقوا الله فى أمانته وليحافظوا على تربيته ، وليتجهوا به الوجهة الصالحة التى خلق لها وليجنبوه مهاوى الضلال وفاسد العقائد والعادات .

ومسألة الفطرة البشرية ، وهل الشر أصيل فى النفوس أو دخيل عليها مسألة تطاحت فيها العقول واختلفت ولم ترفيصلاً تظمنن إليه القلوب فى هذا الاختلاف .

ولكن الغزالي يلبس تلك الفكرة ثوب الدين ، فيرى أن

الميل إلى الحكمة وحب الله وعبادته أمر رباني في القلوب أصيل
لادخيل ، وإنما فاسد الأخلاق هو الذي يميل بالنفس إلى الهوى
ومجانبة الحق وارتكاب الشر .

والغزالي بذلك يعلى من شأن الروح البشرية ويعلى من شأن
الفطرة الأولى ، ويعلى مكانة الإنسان عند ربه ، حتى إنه
يخلقه مهياً للخير مجلوباً عليه « فطرة الله التي فطر الناس عليها »

الخلق والتخلق :

والغزالي يرى أن تربية الخلق الفاضل تكون بالتخلق ، أي
حمل النفس على الأعمال الصالحة الطيبة ، ومن هنا نشأ اهتمام
الغزالي بالرياضة الروحية وتقديره إياها وإيمانه بضرورتها ويقرر
أن كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب
والجوارح ويعلل ذلك بقوله (كل صفة تظهر في القلب يفيض
أثرها على الجوارح ، حتى لا تتحرك إلا على وفقها ، وكل فعل
يجري على الجوارح يرتفع منها أثر إلى القلب ، والدليل على ذلك
أن من أراد أن يصير الخدق في الكتابة صفة نفسية له فلا
طريق له إلا أن يتعاطى بمجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الخادق

ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، حتى يصير صفة لازمة له ، بعد ان كان في الابتداء تكلفاً .
وكذلك من أراد أن يكون حسن الخلق ، فعليه أن يحاكي ذوى الأخلاق الحسنة ، حتى يصبح بالتكرار منهم .

واجب المرشد الأخلاقي :

الخلق السيء عند الغزالي ، هو مرض القلب ، فإذا كان الجهل يعالج بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، فسوء الخلق يعالج بمجاهدة النفس .

وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء ، ومشاق التعليم ، فلا بد أيضاً من احتمال مرارة المجاهدة ، والصبر على احتمال المداومة ، على تلك المجاهدة .

والغزالي طيب نفساني ماهر ، فهو يرى أن الدواء ، إذا زاد قتل ، وإن قل أخفق ، وأن هذا الدواء قد ينفع لشخص ما ويضر غيره ، وكما أن الطيب لو عالج جميع المرضى ، بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد ، لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة والمجاهدة ، أهلكتهم ، وأمات قلوبهم ، بل ينبغي أن

ينظر في مرض المرید وحاله وسنه ومزاجه وبيئته ويبنى على ذلك حكمه وعلى هذا الهدى يقرر نوع رياضته .

وتلك لفظة بارعة من الغزالي ، فلكل نفس حالتها ومزاجها الخاص ، فإذا لم يراع في تهذيبها ظروف البيئة والمزاج والاستعداد النفسى لم يصل المرئى إلى غايته ، ولم يحصل داعى الأخلاق على أمنيته .

الصفات التى يجب تهذيبها :

الفضائل فى مجموعها عند الغزالي تنحصر فى معنيين ، جودة الذهن والتميز ، وحسن الخلق ، فجودة الذهن ليميز طريق السعادة والشقاء ، وليعتقد الحق فى الأشياء ببراهين قاطعة مفيدة لليقين لا عن تقليدات ضعيفة ولا عن تخيلات واهية ، وأما حسن الخلق فإنه يزيل جميع العادات السيئة التى عرف الشرع تفاصيلها فيتجنبها ، ويتعود العادات الحسنة ويشتاق إليها .

ثم ينتقل الغزالي من ذلك إلى تفصيل القوى النفسية التى يجب تهذيبها فيحصرها فى ثلاث قوى رئيسية .
قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب .

فإذا هذبت قوة التفكير كما ينبغي حصل بها الحكمة التي أخبر الله عنها بقوله «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» وثمرتها أن يتيسر له التفريق بين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال ، ولا يلتبس عليه شيء من ذلك .

والقوة الثانية هي الشهوة ، وبإصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وتنقاد للمواساة والإيثار المحمود بقدر الطاقة .

والثالثة الحمية الغضبية ، وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم ، وهو كظم الغيظ ، وكف النفس عن التشنى ، وتحصل الشجاعة وهي كف النفس عن الخوف والحرص .

فإذا أصلحت القوى الثلاث وضبطت على الوجه الذي ينبغي ، وإلى الحد الذي ينبغي ، وجعلت القوتان منقادتين للثالثة التي هي الفكرية العقلية ، فقد حصلت العدالة ، وبمثل هذا العدل قامت السموات والأرض ، وهي جماع مكارم الشريعة وطهارة النفس وحسن الخلق كقوله صل الله عليه وسلم «أكمل المؤمنين

إيماناً أحسنهم أخلاقاً والطفهم بأهله» وقوله «أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقاً الموطنون أكفأفاً الذين يأنفون ويؤلفون» .

أمهات الفضائل النفسية :

وانتقل الغزالي من تلك القوى الثلاث التي يجب تهذيبها إلى الفضائل النفسية ، فقسمها إلى أربعة أصول رئيسية تشمل شعبيها وأنواعها على الفضائل عامة ، وهي :

الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة .

فالحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة العضوية ،

والعفة وكما لها الورع فضيلة القوة الشهوانية .

فالحكمة : تنطوي تحتها العلوم اليمينية الصادقة التي لا تختلف

باختلاف العصور والأمم ، كالعلم بالله تعالى وصفاته وكتبه ورسله

وأصناف خلقه في العالم ، والعلوم التي تساس بها قوى النفس

وتساس بها الجماعات والأمم .

والشجاعة : وكما لها المجاهدة والعدالة ، ينطوي تحتها الكرم

والنجدة وكبر النفس ، والاحتمال والحلم والثبات والنبيل

والشهامه والوقار .

والعفة : وينطوى تحتها الحياء والخجل والمساحة والصبر
والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن
الهيئة والقناعة والهدوء والورع والطلاقة والظرف والمساعدة .
والعدالة : وكما لها الإنصاف ، الإنصاف العام فلا تحب
لأخيك إلا ما تحب لنفسك وتكره لأخيك ما تكرهه لنفسك ،
وتعطي الحق كاملاً .

فالعدالة جامعة لجميع الفضائل ، والجور مقابل لها ، وهو جامع
لجميع الرذائل .

تلك هي جماع الفضائل النفسية عند الغزالي ، وهو يشرح
كل واحدة منها شرحاً كاملاً شاملاً ، مستمداً أدلته من
الكتاب والسنة والكشف والأمثال .

ثم يعقبها بالفضائل البدنية . ويحصرها في أربعة أمور :
الصحة ، والقوة ، والجمال ، وطول العمر .
ولكل واحدة من تلك الفضائل عنده معان وصفات وأهداف
وواجبات ، تستغرق من بحوثه صفحات وصفحات .
ثم يتم هذه الفضائل بفضائل يسميها « فضائل مطيعة للإنسان »
وهي أربعة أمور أيضاً :

المال ، والأهل ، والعز ، وكرم المشيرة :
 ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك ، إلا بالنوع الخامس ، من
 الفضائل ، وهي الفضائل التوفيقية ، وهي أربعة :
 هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأيدده .
 ذلك هو الدستور الخلقى للغزالي ، وهو دستور تشتمل عليه
 طائفة كبيرة من كتبه ، وينثره كالعطر بين أسطره وفصوله ،
 في مختلف كتبه وفنونه .

وهو دستور ، وإن لم يخضع للقواعد النفسية ، والنظريات العلمية
 الحديثة — بل خضع خضوعاً تاماً للفكرة الدينية والآداب
 الإسلامية — فقد حقق كثيراً من أهدافه ومراميه ، واستطاع
 أن يكون إماماً مرشداً للملايين ، أحقاباً وقرونًا .
 هو دستور ، أوجد في الشرق مدرسة ، تأدبت بآدابه ، وتعلمت
 على فضائله ، بل لقد هيمن هذا الدستور ، على أهداف الوعظ
 الإسلامي ، هيمنة كاملة ، ملموسة الأثر إلى يومنا .

الغزالي وصلات الرجل بالمرأة

حديث الغزالي عن المرأة مطبوع دائماً بطابع الخلق الكريم ،
فهو يقيم صلوات الرجل بالمرأة على آداب عليا وتقاليد مهذبة ،
لا تتجنى إلى الشدة ولا تدفع إلى الاستهتار .

فهو يقرر أن سيادة البيت للرجل وبدون تلك السيادة
لا تستقيم الحياة ولا توجد السعادة ، فمن أطاع المرأة وملكها
نفسه ، فقد عكس القضية إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً
لا تابعاً ، وقد سمي الله تعالى « الرجال قوامين على النساء »
« وسمى الزوج سيدياً » فقال تعالى « والفيأ سيدها لدى الباب »
فإذا انقلب السيد مسخرأ فقد بدل نعمة الله كفرأ ولكنه يفرض
للمرأة حقوقاً مقدسة ، ويفرض على الرجل واجبات يؤديها للمرأة
ويلزم بها إلزاماً هي كفاء سيادته .

ولعل المرأة لم تطمع يوماً من الأيام مهما نادى بالمساواة
وتطرفت في تلك المساواة في كلمة أروع من تلك الكلمة التي
جعلها الغزالي محور صلوات الرجل بالمرأة وهي قوله : « ليس

حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها ،
والحلم عند طيشها وغضبها .

ذلك دستور الغزالي الخلق في صلوات الرجل بالمرأة ، فليس
حسن الخلق كف أذى الرجل عن المرأة ، بل احتمال الأذى منها
عند غضبها وطيشها .

ويأمر الغزالي الرجل بأن يكون بشوشاً مرحاً مع زوجته ،
فيطيب قلبها بالمزاح والمداعبة ، ولا يقتر في الإنفاق عليها ، بل
يجب عليه أن يتحفها دائماً بالهدايا والحلوى كما أن عليه أن ينظر
في حاجة المرأة إلى حقوق البدن وندائه وهو أساس التحصين
والعفة .

والاعتدال في الغيرة هو قاعدة السعادة والهناء في الحياة
الزوجية ، فيقول الغزالي : يجب على الرجل أن لا يتغافل عن
مبادئ الأمور التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في الظن والتعنت
وتجسس البواطن .

ومبدأ الاعتدال في الغيرة من أسمى المبادئ ، بل هو أصل
من الأصول المؤدية إلى هناء العيش الزوجي ، وإطلاق النور
والحبة والصفاء في رحابه .

وينادى الغزالي بضرورة تعليم المرأة ، ولكنه يقصر تعليمها على الأمور الدينية ويلزم الرجل بتعليم زوجته الصلاة ومبادئ الدين ، فإن قصر وجب على المرأة أن تخرج لتتعلم ولا جناح عليها في ذلك ، وليس للرجل أن يمنعها ، إذ العلم واجب ديني على الرجال والنساء فإذا أتمت تعلم الفرائض وأصول الدين ، فلا يحق لها أن تخرج للاستزادة من العلم إلا برضاء الزوج وموافقته .

ويلح الغزالي على الرجل إلحاحاً كبيراً في وجوب الرفق بالمرأة ، فيقول في كتابه التبر المسبوك : « إن من أحب أن يكون مشفقاً على زوجته رحيماً بها فليذكر ، أن المرأة لا تقدر أن تطلقه وهو قادر على طلاقها ، وأنها ما دامت في عصمته لا تقدر على زوج سواه ، وهو قادر على ذلك وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو لا يفارق لأجلها أحداً » .

الغزالي والطلاق :

الطلاق إحدى المسائل الرئيسية التي أسرف الناس فيها إسرافاً لا يرضاه الشرع ، ولا تقره نظم الحياة الاجتماعية .

فالطلاق ديناً ، ليس هوى ومتاعاً للنفوس بل ضرورة وضرورة
عظمى ، في حالة شاذة لا سبيل إلى إصلاحها وعلاج شرورها
إلا به ، وهو أبغض الحلال إلى الله لما فيه من أذى .

والغزالي يقول : إن الطلاق إيذاء ، ولا يباح للرجل إيذاء
المرأة إلا بجنابة من جانبها .

ولا بد عند الغزالي أن يسبق الطلاق مجالس للصلح والتوفيق
كما أمر القرآن ، فإذا وقع بين الزوجين خصام وشقاق ، فلا بد
من حكمين حكم من أهله وحكم من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا
أمرهما ، ولا يجب الطلاق قبل ذلك ، ولا ينبغي لأنه إيذاء وضرر .
وما يراه الغزالي هنا هو خلاصة روح الإسلام وتشريعته ،
بل ما أحوج عصرنا اليوم إلى تدبره وتنفيذه ، فلا يباح الطلاق
إلا بجنابة زوجية ولا يباح الطلاق قبل التحكيم في النزاع
والسعى في التفاهم والوفاق .

رسالة العلم وآداب المتعلمين

خطأ الجمهور والكتاب في فهم الغزالي :

آراء الغزالي في العلم ، على لونين ، لون صوفي ينادى بالعلم الأخرى والعزوف عن سواه ، ولون آخر يقدر العلوم كافة ويدعو إليها ويأمر بها .

وقد التبس هذا الأمر على كل دارسي الغزالي والمتبعين لآرائه بل إن لسوء فهم آراء الغزالي في العلم أثراً بعيد المدى جداً في التفكير الإسلامي .

فالغزالي قد هيمن على عقول القرون التي تلتها هيمنة كاملة ، وقد فهم جمهرة أتباعه ، ومن تثقف على آرائه ، أنه يخاصم العلم الدنيوي ، بل لقد وقع في هذا الخطأ كثير من العلماء والسادة فظنوا ، وأكثر الظن إنهم ، أن الغزالي يحارب علوم العقل والتجربة بل ويذمها ويحقرها ، ولا يدعو إلا إلى علوم الآخرة . وقد حسب كثير من الناس في قرون متتالية أنهم يتابعون الغزالي ، وهو حجة الإسلام إذا عرضوا عن الدنيا إعراضاً كاملاً ، نعيمها وطيباتها وعلومها أيضاً .

وتسلسلت هذه الفكرة مع القرون وتتابعت مع السنين، وجارى العلماء العامة في تفهم الغزالي، بل جارى العامة كثيراً من رجال الفكر والقلم، فظنوا بالغزالي ما ظنوا، ووقفوا من آرائه في العلم والتعليم موقفاً مضحكاً! حسبوا فيه أنهم يسخرون من الغزالي لتعدد آرائه وسوء فهمه، وهم يسخرون من أنفسهم لأنهم لم يفهموا حقيقة آرائه؟

وسر هذا الخطأ في الفهم أن الغزالي كان يكتب في أواخر حياته كتبه للصوفية وعلى طريقهم، وما كتب للصوفية لا يصلح إلا لهم ولا يباح للناس جميعاً، وليس هو الحق وحده والغزالي يقول « إن هذا الطريق ليس للناس جميعاً ولو تبعه الناس وعملوا به نخرب العالم وبطلت الحكمة منه » .

فالغزالي حينما عرف العلم « بأنه العلم الأخرى، وحينما دعا إلى الاشتغال بالعلم الحقيقي كالعلم بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، وإهمال علوم العقل والتجربة، إنما كان يخاطب الصوفية وحدهم، ويقرر مذهبهم القائم على الفناء في الله والإعراض عن الدنيا بالكلية، كان يصف صورة مثالية لقوم مثاليين في عبادتهم .

وهو إذ يعرف علم الفقه بأنه من علوم الدنيا ، ويقول إن
 الفقيه هو العابد المرشد لا المجادل العالم بأصول الفقه وتخريجات
 أحكامه ، إنما قصد بهذا التعريف وجهة النظر الصوفية ، وقد
 نبه الغزالي على ذلك في مواقف مختلفة من كتبه ، فهو يقول
 بعد أن أشاد بعلم الآخرة وحث عليها وأمر بترك ما سواها من
 علوم الدنيا .

« ولا ينبغي أن يفتر رأيك في طلب العلوم الدنيوية بما حكيماها
 عن طريق الصوفية فإنهم لا يمتقدون حقارة العلوم ؛ بل يعتقد
 كل مسلم حرمتها وعظمتها ، وما ذكروه إنما أوردوه بالإضافة
 إلى مرتبة الأنبياء والأولياء » .

ثم يقول :

« ومن قصد التقرب إلى الله بالعلوم نفعه الله ورفع له لا محالة » .
 ذلك هو قول الغزالي في وضوح وصراحة ، وكأنما أحس
 بما سيحدث من سوء فهم لآرائه فنأدى بعدم فتور الرأي في
 طلب العلوم العقلية بما يحكى عن الصوفيين ، لأن ذلك لهم
 خاصة وهم لا يحتقرون العلوم ؛ بل يجلوونها ويعتقدون عظمتها
 وحرمتها وقد استها ، بل يقرر الغزالي أن من قصد التقرب إلى

الله بالعلوم على اختلاف أنواعها نفعه الله ورفعته .

بل هو يقرر في يقين أن الله سبحانه حجب العلوم إلى الناس لصالح العالم ، فيقول في كتابه ميزان العمل « فلولاً أن الله حجب علم الفقه والنحو والطب والرياضة إلى آخر العلوم في قلوب طوائف من الناس لبقيت هذه العلوم معطلة وتتشوش النظام الكلي » .

الغزالي عالم رحب الآفاق تشهد بذلك كتبه وآثاره ، عالم بالعلوم وفنونها على اختلاف ألوانها وغاياتها ، تشهد بذلك أيضاً كتبه وآثاره ، فهو عالم يدعو إلى رسالة العلم كاملة في يقين وإيمان ، لأنه يؤمن بأن نظام العالم ، ونظام القوة والسيادة في الدنيا إنما يبني على العلوم والمعارف الكونية والعقلية ، فمن الخطأ في حق العلم ، ومن الخطأ في حق العقل أن يقول قائل إن الغزالي يحارب علوم العقل والكون والتجربة ، وهو إمام من أئمتها .

ولكنه حين يتحدث في أساليب الصوفية ومبادئ الصوفية يعلى شأن العلوم الأخروية لأنها روح العبادة واليقين ، ويجري المقارنات بينها وبين علوم الدنيا فيذمها بالقياس إليها وتمجيداً

لها ، والصوفية فئة من الناس ارتضوا لأنفسهم وضعاً معيناً ،
 وحياة معينة ، ومسلكاً في الوجود فريداً كالرهبان مثلاً ،
 فما يصلح لهم لا يصلح لغيرهم ، وهم لم يقولوا للناس هلم إلينا ،
 ولم يقولوا لهم تكفوا ما نتكلف واتبعوا ما نتبع وتحملوا ما نتحمل .
 ولغة الغزالي الصوفية شديدة الخطورة في تفهم آرائه ، بعيدة
 الأثر في تشويه تلك الآراء ، وتشويه آثارها في النفوس والعقول .
 وقد فتن كثير من الناس وضلوا بسبب خطأهم في فهم الصوفية
 وأغراضها ولغة مباحثها وعلومها .

وهو يعرض صورة الصوفية في براعة وتشويق شأن أساليبه ،
 والقلوب تسارع إلى التمسك بتلك الصور المعطرة بذكر الله
 والجنة ، فتنسى في تلك الوثبة الروحية في ختام البحث مثلاً ،
 أن الغزالي قد بدأه بقوله :

« من لم تكن بصيرة عقله نافذة فلا تعلق به من الدين إلا
 قشوره ؛ بل خيالاته وأمثله دون لبابه وحقيقته ، فلا تدرك
 العلوم الشرعية إلا بالعلوم العقلية ، فإن العقلية كالأدوية
 للصحة ، والشرعية كالغذاء ، والنفس المريضة المحرومة من
 الدواء تتضرر بالأغذية ولا تنتفع بها ، وذلك اعتراف صريح

من الغزالي بأن العلوم الشرعية والأخروية لا تدرك إلا بعد
 التمكن من العلوم العقلية لأنها الميزان والدواء ؛ بل هو يربط
 معرفة الله بمعرفة علوم الكواكب والآثار العلوية، ومعرفة أقسام
 الموجودات وآيات الآفاق في كثير من بحوثه ، فكيف يتهم
 الغزالي بعد ذلك بأنه من خصوم العلوم والفنون ؟ .

العلم أصيل في النفوس :

يرى الغزالي أن النفس الإنسانية معدن للعلم والحكمة ومنبع
 لها ؛ فالمعارف أصيلة فيها لا دخيلة عليها .

مثلها في ذلك كالنار في الحجر ، والماء في الأرض ،
 والنخل في النواة ، ولذلك وجب السعي للتعلم لتعود النفس إلى
 فطرتها ، ولا بد من الصبر والتجمل في الصبر لإدراك تلك
 الغاية العليا .

والغزالي هنا متأثر بالصوفية ، فالتصوفة يقولون إن العلوم
 كافة موجودة في القلب ، وإنما أسدلت على القلوب أحجية
 من الظلمة طمست تلك الأنوار ، فلورفعت الحجب بالرياضة
 والمجاهدة لامتلأت القلوب حكمة وعلماً .

الغاية من العلم :

يضيف الغزالي على الغاية من العلم ثوباً خلقياً ، لأنه ينظر إلى الدنيا دائماً نظرة مثالية ، فالغاية من العلم عنده هي بلوغ النفس كمالها ، لتسعد بكمالها مبهجة بما لها من البهاء والجمال أبد الدهر .

وهذا التعريف يشتمل على أدق ما قيل في الغاية من العلم ، والهدف الذي ينشده الإنسان من ورائه .

بلوغ النفس كمالها ، تلك غاية العلم ، وغاية هذا الكمال سعادة النفس بما لها من البهاء والجمال ، بهاء العلم ، وجمال المعرفة .

واجبات المتعلم :

ثم يضع الغزالي دستوراً شاملاً للآداب والأخلاق والمبادئ الواجبة على المتعلم والمعلم وطرق التعليم ووسائله ، فيرى أن على المتعلم واجبات أهمها .

أن لا يبدأ دراسته في علم ما يتعلم الاختلاف الواقع بين أصحاب هذا العلم ، لأن ذلك يفتر عزمه ، ويضعف إيمانه فيما يتعلم . وأن لا يدع فناً من فنون العلم ونوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه

نظراً يطلع به على غايته ومقصده وطريقه ، ثم يتخصص بعد ذلك ، لأن العلوم جميعها متعاونة ، يفيد بعضها بعضاً ، وحتى لا يكون معادياً لعلم ما بسبب جهله له ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى « وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » .

ثم من واجباته أيضاً ، أن لا يخوض في فنون العلوم دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ، ولا يخوض في فن من الفنون حتى يستوفى الفن الذي قبله ، وأن لا يبتر العلم بل يتمه ، لأن العلم يجب أن يكون تاماً وإلا كان مضراً ، نعوذ بالله من نصف متكلم ونصف طبيب ، فذلك يفسد الدين ، وهذا يفسد الحياة الدنيا .

تلك آراء الغزالي في واجبات طالب العلم وأساليب التعليم ، وهي تطابق أرقى البرامج العلمية الحديثة ، وتتمشى جنباً إلى جنب مع المناهج المستحدثة في الكليات والجامعات من حيث التخصص بعد الإلمام العام .

ومن أروع لفتات الغزالي البارعة أنه يجب الاطلاع على كل علم حتى لا يعادى بسبب الجهل به لأن الناس أعداء لما جهلوا . ثم يجعل الغزالي رسالة العلم مستمرة ، فيقرر أن المتعلم إذا بلغ

الغاية من العلوم أصبح من الواجبات المقدسة عليه أن يعلم غيره حتى تتم حلقة العلم فتشمل الإنسانية كافة .

واجبات المعلم :

وعلى المعلم آداب وواجبات أهمها :
أن يجعل تلاميذه عنده كبنية تماماً حياً ورعاية وإخلاصاً في تثقيفهم وتعليمهم ، وتزويدهم بالمثل العليا التي تفيدهم وتفيد الإنسانية على أيديهم .

وعليه أن يعمل بما علم قبل أن يدعو الناس إلى علمه ، فعمل الشرع لا يكذب حاله مقاله وإلا نفر الناس من آدابه وشرعه .
والطبيب إذا تناول ما زجر الناس عنه حملهم على الهزء به وتناول ما نهام عنه ولو كان من السموم ، فيضل ويضل ، وينقلب النهى إغراء وتحريضاً .

والعلم والعمل صفتان متلازمتان عند الغزالي ، فلا قوام لإحدهما بدون الأخرى ، فإذا ترك المعلم ما يهديه إليه علمه ويأمره به فقد ضل وأضل ، وفقد ثقة الناس ، بل يجب الإعراض عنه وإخراجه من حظيرة العلم .

القدرية والتوكل

فكرة القضاء والقدر إحدى مشاكل الشرق الكبرى ، وقد خدع كثير من عوام المسلمين بها ، كإنسبها إلى الإسلام ظلاماً كثيراً من الأوربيين .

والغزالي في نظر الجماهير الإسلامية في عصرنا وفي العصور السابقة ، إمام من أئمة المنادين بالتوكل والقدرية ، لأنه إمام من أئمة التصوف والصوفية .

والغزالي يرى من هذا ، براءة الإسلام منه ، وإنما نشأت تلك العقيدة من تطرف بعض الصوفية ، ومن سبجات أقلامهم بكلمات تبرق فتخدع من لا يعرف حقيقة الإسلام وحقيقة دعوته إلى العمل والحياة والقوة والكفاح .

يقول الغزالي :

«من الخطأ أن يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكالحم على الوضغ فهذا ظن الجهال .

لأنك أن انتظرت أن يخلق الله فيك شعباً دون الخبز ، أو يخلق

في الخبز حركة إليك، أو يسخر ملكاً ليمضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله، وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله نباتاً بغير بذر، أو تلد زوجتك بغير وقاع، فلا يجوز لك ترك الأسباب كما يجب أن تعلم أن مسبب الأسباب هو الله تعالى» تلك هي الكلمة القوية التي نفي بها الغزالي تهمة التوكل عن مبادئه، وبالتالي عن مبادئ الإسلام.

ومن عجب أن الأمثال أصبحت تضرب بالغزالي إذا ذكرت مذاهب القدرية، ومذاهب المتوكلين الخاملين المتهالكين على الكسل والراحة باسم الدين والقدوة الصالحة.

بل أعجب من هذا، أن أقلام الكتاب الذين كتبوا عن الغزالي قد جارت العوام والجمهرة من الناس، فنسبوا إلى الغزالي ما يبرأ منه وما يبرأ منه الإسلام

ووجه الشبه عند هؤلاء، وهؤلاء هو ما ترخر به كتب الغزالي من ذكر الصوفية وأخبارهم، وما في قصصهم من توكل مطلق. وقد أوضحنا أن الغزالي يكتب هذا القصص للصوفية فقط، وأنه يقرر أن الصوفية مذهب خاص لا عام، وأن فكرتهم لوسادت لفسد العالم وبطلت الحكمة منه.

الغزالي وتفسير القرآن

كتاب « جواهر القرآن » للغزالي يدل دلالة واضحة على إيمان الغزالي العميق بأن القرآن مصدر كامل لعلوم الروح والبدن والطبيعيات والفلكيات والنباتات ، بل وعلوم الآلات بسائر فروعها .

ولهذا فإنه يجب على مفسر القرآن أن يكون محيطاً بكل هذه العلوم حتى يؤدي أمانة التفسير كاملة .

فإذا قال القرآن مثلاً « يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » فلا يفسر هذه الآية التفسير الكامل المراد منها ، إلا من عرف تشرح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها . . الخ »

وإذا تعرض لقوله تعالى « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » فكيف يفسر تلك الآية من يجهل التسوية والنفخ والروح وأسرارها .

وإذا قال القرآن « والشمس والقمر بحسبان » وقال « وقدره

منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » ، وقال « وخسف القمر
 وجمع الشمس والقمر » ، وقال « والشمس تجري لمستقر لها » ،
 فلا يعرف حقيقة الشمس وسيرها وأبراجها ومنازلها ، والقمر
 ودوراته ، وخسوفهما ، وولوج الليل في النهار ، وكيفية تكور
 أحدهما على الآخر إلا من عرف هياكل تركيب السموات والأرض
 وهو علم تتفرع منه علوم .

أما آية « وإذا مرضت فهو يشفين » فهذا الفعل الواحد لا
 يعرفه إلا من عرف الطب بكامله وأحاط بدقائقه وأساره .
 وتلك دعوة صريحة من الغزالي إلى الإحاطة التامة بالعلوم كافة ،
 وهي تنفي تهمة إهمال العلوم العقلية التي نسبت إليه فهو يقرر أن
 مفسر القرآن لا بد وأن تتوفر فيه القدرة الكاملة على تفهم العلوم
 العقلية قبل الشريعة ، حتى يستطيع أن يتفهم أغراض القرآن ،
 ويستطيع أن يبرز للعالم ما فيه من عظمة وجلال وعلوم ومعارف .
 ويقول الغزالي بعد أمثلة كثيرة شاملة « ولو ذهبت أفضل
 ما تدل عليه آيات القرآن الكريم من تفاصيل وعلوم لطال الأمر
 وتشعب ، فنفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع
 علوم الأولين والآخرين » .

الغزالي وصفات التشبيه والتجسد :

يقول الغزالي ، إن الإنسان لا يحتمل الحقائق الروحية إلا مصبوبة في قالب الأمثال الخيالية ، ومن هنا نفهم ما ورد في القرآن من آيات الصفات والتجسد .

فهي آيات للتقريب والفهم ، لا للدلالة على صور وصفات ، وبذلك ينفي الغزالي صفات التشبيه ، ويقرر أن إدراك ذلك إنما يكون بإدراك المناسبة ، بين عالمنا وعالم الروح ، فالمثال الجسماني مندرج تحت المعنى الروحاني .

ويضرب لذلك مثلاً بالمنامات ، وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة وكيف تكشف حقيقتها بأمثلة خيالية .

فقد روى بعضهم ، أنه شاهد في منامه ، أن في يده خاتماً ، يحتم به فروج النساء ، وأفواه الرجال فقال له ابن سيرين « أنت رجل تؤذن في رمضان قبل الصبح ، فقال نعم » ، يقول الغزالي « فانظر ختم الأفواه والفروج بالخاتم مشاركاً لآذان قبل الصبح في روح الخاتم ، وهو المنع وإن كان مخالفاً لصورته ، وقس على ذلك ما ورد في القرآن والأحاديث والأمثال فإنها تشتمل على كثير من هذا

الجنس « كقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » فإن روح الإصبع القدرة على سرعة التقليب ، فإن قلب المؤمن بين العوابة والهداية ، والله تعالى يقلب قلوب العباد ، كما يقلب الإنسان الأشياء بإصبعين ، وكذلك سائر الأحاديث والآيات الموهمة للتشبيه والاستواء .

فمن عرف معنى الإصبع ، عرف بعد ذلك معنى القلم في قوله تعالى « علم بالقلم » ومعنى اليد في قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » .

الغزالي والاكتشافات العلمية :

وللغزالي رأى عجيب مبتكر في علوم مقبلة وعلوم مندرسة فهو يقول :

« ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتماهى فيها ، أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم العجيبة لم تخرج بعد من الوجود ، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه العصور على وجه الأرض من يعرفها ، وعلوم أخرى ليس في قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين » .

والغزالي بهذا قد تنبأ بالمعارف الإنسانية التي نشاهدها في عصرنا ولم يشاهدها هو في عصره ، والتي ستشاهدها العصور القادمة ولم نشاهدها نحن .

ونظريته في العلوم المدرسة يشهد بصحتها العلم الحديث والاكتشافات التاريخية ، فقد وجد لدى قدماء المصريين في مقابرهم من أسرار الكيمياء وتحنيط الأجساد والحجوب وأسرار البناء والفلك ما لم تهتد إليه المعارف الحاضرة .

رموز القرآن :

وللغزالي كتاب سماه رموز القرآن ، ولكنه لسوء الحظ لم يطبع ، وأما نسخته الخطية فقد نقلها المستشرقون إلى برلين وبذلك فقدنا الدليل الذي كنا نستطيع به أن نعرف هل استطاع الغزالي أن يفسر القرآن بالشروط التي اشترطها ، أم عجز عن الوفاء بما اشترط؟ وقد أشار غير واحد من المؤرخين إلى أن الغزالي قد أشار في كتابه هذا إلى الكهروبا والديناميت والهواء الخفيف ، ولكن ليس في استطاعتنا أن نؤكد صحة هذه الأشياء ، فدليلها مفقود ، وآيتها في بطون صفحات لا تزال محجوبة عن الشمس .

الغزالي بين أنصاره وخصومه

« أروع الناس وأتقاهم وأعلمهم من لا ينظر »

« الناس كلهم إليه بعين واحدة، بل بعضهم »

« بعين الرضا وبعضهم بعين السخط » .

الغزالي

الغزالي أحد مشاكل الفكر في التاريخ الإسلامي ، فقد عشقه أقوام حتى رفعوه مكاناً علياً ، لا ترقى إليه الشبهات ، ولا تناله النقدرات ، فنادوا به قطب العلوم الأكبر وحبر الأمة الأعظم ، بل سموا به سمواً كادوا يصلون به إلى العصمة ، وأسدلوا عليه ستاراً من الرهبة ، وأطلقوا عليه شعاعاً من النور الألهي حتى أنهم ليقرؤن كتابه « أحياء العلوم » فيجعلونه أوراداً للتبرك بعد القرآن والسنة ؟

وقالوا فيما قالوا ، أن الصالحين منهم شاهدوا الرسول صلوات الله عليه في المنام يبارك الغزالي ، ويعاقب خصومه ، ويفاخر به أنبياء بني إسرائيل ، وإن موسى عليه السلام ، قال له ، إنك تقول أن علماء أمتي كأَنْبياء بني إسرائيل ، قال نعم ، قال فما

دليلك ، قال علي بروح الغزالي ، فلما حضر قال له موسى ،
 ما اسمك ؟ قال محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، قال سألتك عن
 عن اسمك فلم ذكرت لي اسم أبيك وجدك ؟

قال الغزالي وأنت سألتك ربك عما يمينك فقلت هذه
 عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى
 وقد سألتك عما يمينك فقط ، قالوا فحاجه الغزالي .

ولأريب في أن أنصاره أسرفوا وغالوا في الإسراف ، كما أن
 خصومه قد أسرفوا وغالوا في الإسراف .

كان الغزالي يخطيء ويصيب ، والشخصية الإنسانية الكاملة
 هي التي تخطيء وتصيب ؟

فلا يليق بالمغالين أن يعضبوا إذ قيل أن الغزالي استقام
 تفكيره هنا ولم يستقم هناك ، لأنهم يقدسونه ويجلوناه عن الخطأ ،
 وليس هكذا الإنسان .

والغزالي بعد ، لسان من ألسنة الدين القوية ، وحجة من
 حججه الباهرة ، ومجاهد من أكبر مجاهديه ، وقائد من أعظم
 الهداة في القافلة ، ومفكر من أئمة رجال الفكر في تاريخ الفكر .
 فلن نرضى من خصومة أن يسلبوه العلم أو الأيمان ، ولن

نرضى من خصومه أن يجردوه من المنطق والصواب ، ولن نرضى من خصومه أن يهبطوا به إلى مناطق العامية والركاكة .
 كان الرسول صلوات الله عليه ، يقول لعلي كرم الله وجهه :
 هلك فيك رجلان ، رجل غالي في محبتك ، ورجل غالي في عداوتك .

وما أصدق تلك الكلمة على الغزالي ، فقد غالي قوم في محبته حتى جحدوا المنطق فأقاموا الهوى علماً ومحنة ، وغالي قوم في عدوانه حتى فقدوا قداسة الإنصاف ، فأضاعوا الحقيقة التاريخية وشوهوا حقائق العلم والهدى .

الغزالي أحدث دويماً علمياً في جيله ، وأحدث دويماً علمياً في الأجيال المتعاقبة وتلك سمة الخلود ، وطابع العبقرية .

والمشكلة الحقيقية ليس محورها الغزالي فحسب ، بل محورها ومحركها الصراع بين مدرستين والتباغض بين فكرتين ، اختلفتا في المزاج والتأويل ، كما اختلفتا في التعليم والتفكير .

فالغزالي بعد أن برع وتفوق في مختلف العلوم والفنون أعرض عنها ولجأ إلى شعاع من الكشف الروحي جعله محور العبادة والهداية ، ومن ثم أضفى على الفقه وسائر العلوم الإسلامية ثوباً

صوفياً شمل أصولها وفروعها ، واستطاع الغزالي أن يوقظ الشعور ويلهب حرارة الروح والأيمان في الجماهير ، كما استطاع أن يتزعم رجال المذاهب الصوفية وهم قوة لها أثرها ونفوذها الضخم الساحر في التفكير الإسلامي .

وخاصم الغزالي شتيت من المفكرين على اختلاف ألوانهم ونحلهم من الفلاسفة إلى علماء الكلام ، خصومة أساسها إسراف الغزالي في التمسك بالمظاهر الروحية ، وإسراف هؤلاء في التمسك بالمظاهر العقلية .

وانضم إلى هؤلاء الخصوم بعض رجال الفقه ، لأن الغزالي هاجمهم هجوماً عنيفاً وزلزل مكانتهم في قلوب الجماهير زلزالاً كبيراً إذ نادى بصوته القوي ، بأن الفقيه هو العابد العامل بعلمه ، لا العالم البارع في المجادلات والتخريجات ؟

وما أصدق ابن السبكي « إن الطرق إلى المعرفة شتى مختلفة ، وقلما رأيت سالكا لطريق من الطرق ، إلا واستقبح الطريق التي لم يسلكها ، ولم يفتح عليه من قبل فيها ، فيضع عند ذلك من أهلها .

وقد تعددت الكتب والآراء التي صدرت في نقد الغزالي ،

ولكن أشد خصومه التاريخيين ابن رشد من الفلاسفة ، وابن القيم من المجددين الإسلاميين .

أما ابن رشد فقد هاجمه دفاعاً عن الفلسفة وانتصاراً للفلاسفة وهو هجوم لم يثبت على التاريخ لأن الغزالي كان فيه نصيراً للروح الإسلامي ، وكان ابن رشد فيه صدى لأفكار غيره من فلاسفة الأغر يق وسواهم من المتأخرين .

وأما ابن القيم ومن ذهب مذهبه وجرى في عنان الخصومة جريه فقد حصروا نقدهم للغزالي في عشرين مسألة تدور بأسرها على محور واحد وهو أسراف الصوفية في الابتعاد عن المظاهر الإسلامية وأهم تلك المسائل :

- (١) قول الغزالي « ليس في الإمكان أبدع مما كان » فقد اعتبروا أن في تلك الكلمة ما يوهم العجز في قدرة الله تعالى
- (٢) وصفه الرياضة الروحية ، بأنها تفريغ القلب بالخلوة ، والجلوس في مكان مظلم ، فإنه في مثل هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ، ويشاهد جلال الربوبية ، فيقول له ابن القيم ، « وما أدراك إن ما يسمعه حينئذ هو هذيان روحه ووسوسة شيطانه ، فإن الامتناع عن الأكل والاختلاء في الظلام يبعث الوسوس والجنون

- ٣ — تأييده لقول الجنيد ، إذا كان الأولاد عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنك بعقوبة شهوة الحرام ؟
- ٤ — تقريره أن بعضهم بات عند السباع في البرية ليتحقق من صحة توكله على الله ؟
- ٥ — قوله إن بعض الشيوخ كان يكسل في بدايته عن قيام الليل فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفسه بحيث تجيبه إلى قيام الليل اختياراً !
- ٦ — قوله في الأحياء إذا طلب الرجل علم الحديث أو سافر في طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا .
- ٧ — قوله نقلاً عن أبي حمزة البغدادي « إنني لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شبعان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شبعي زاداً تزودت به » .
- ٨ — تقريره ما حكاه عن أبي حسن الدينوري أنه حيج اثنتي عشر حجة وهو حاف مكشوف الرأس .
- قال ابن القيم : « هذا من أعظم الجهل لما في ذلك من الأذى للرأس والرجلين ولا تسلم الأرض من الشوك والوعر ، وكأن هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف

وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم بجانب ، فنعوذ بالله من
تلبيس إبليس ، فإن مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام
فيظنون أن فعله من الصواب »

ويقول ابن القيم أيضاً :

« وإني لأتعجب من أبي حامد هذا كيف يأمر بهذه الأمور
التي تخالف الشريعة وكيف يحل لأحد أن يقوم على رأسه طول
الليل ؟ وكيف يحل رمي المال في البحر فيما رواه عن الشبلي من
أنه كان يرمى ما معه من الدنانير في الماء ويقول « ما أعزك عبد
إلا أذله الله » . ثم يعقب ابن القيم بقوله :

« كانت الزنادقة في العصر الأول يكتمون حالهم ولم يتجاسروا
على إظهار ما عندهم حتى جاءت الصوفية فرفضوا الشريعة جهراً
وتستروا بمسمى الحقيقة وصاروا يقولون : هذا شريعة وهذا
حقيقة ، وهذا من أقبح الأمور ، لأن الشريعة قد وضعها الله
تعالى لصالح العباد في الدارين فما الحقيقة بعد ذلك إلا إلقاء
الشيطان في النفس ، وقد تمادى هؤلاء الجهلة في غيهم حتى صار
أحدهم يقول حدثني قلبي عن ربي ، وذلك تصريح بالاستغناء
عن بعثة الرسل وهو كفر ، وهي حكمة مدسوسة في الشريعة

تحتها هذه الزندقة ، ولكن قد صار الخروج عن الشريعة كثيراً
 بالسكوت على هؤلاء الجهال الذين سمو أنفسهم بالصوفية »
 تلك هي خلاصة التهم التي وجهت إلى الغزالي ، وتلك هي
 خلاصة الأقوال العنيفة التي وجهها إليه خصومه .

وهذا التراث الضخم الذي تركه الغزالي ، وهذه الخصومة
 العنيفة التي أثارها ما كان ينبغي لها أن تمر دون أن يجد خصومه
 في آثاره ما يمسكونه به ، وما يأخذونه عليه .

ولا جدال في أن الغزالي قد أسرف على نفسه ، وأسرف على
 قرائه بتلك السبحات الصوفية التي تدل ظواهرها على ما يخالف
 ظواهر الشريعة الإسلامية .

ولا جدال أيضاً في أن الغزالي كان يعلم حقيقة الشرع أكثر
 مما يعلم خصومه ، وأنه كتب ما كتبه لفئة معينة من رجال
 التصوف الزموا أنفسهم بألوان من العبادات والطاعات معينة .
 وحالات الإلزام الشخصية الاختيارية لا إعتراض عليها ما لم
 تؤدي إلى الضرر العام .

ولكن قراء الغزالي وخاصة الجماهير لا تستطيع أن تميز بين
 ما أراده الغزالي للصوفية وبين ما يكتبه للناس جميعاً .

وقد دافع عن الغزالي فريق من أنصاره وأتباعه دفاعاً قوياً ، فوضع السيد مرتضى كتابه « آتخاف السادة » ، فند فيه جميع تلك التهم تفنيدياً لا يخلو من إسراف في الدفاع عن الغزالي ، وتبرئته من كل خطأ .

ولا يسعنا إلا أن نكرر أن الغزالي كان يخطئ ويصيب ، والشخصية الإنسانية الكاملة هي التي تخطئ ، وتصيب ، وتلك الهنات لا تعد شيئاً بجوار ما أسدى الغزالي إلى العالم الإسلامي وإلى الفكر الإسلامي من تراث انتفعت به الأجيال والقرون انتفاعاً هداها إلى خير وارشاد وعبادة وإيمان أكثر مما هداها خصومه وحساده ، بل أكثر مما هداها أى قلم آخر من الأقلام التي شرعت للهدى والايمان .

خصومة المعاصرين :

ذلك لون من ألوان خصومة القدامى للغزالي ، وقد امتدت تلك الخصومة على التاريخ ولبست ألواناً مختلفة ، حتى أسلمتها الأحقاب إلى عصرنا .

فراينا خصوماً جدداً فيهم عنف ولد . أخذوا يحاكون

الغزالي إلى مبادئ العصر الحاضر ونظمه ومعارفه ، وشرعوا
 يحكمون على روحانيته بما ديتهم ، فما أنصفوا أنفسهم وما أنصفوا
 الغزالي معهم !

قالوا عنه إنه رجل يحمل أ كفانه على عاتقه ، ولا ينفك
 لسانه عن اللمدمة بالعقاب والحساب ، والجنة والنار ، والعبادة
 والفناء . وليس هذا من مذاهب الحياة المثلى ، ولا من طرائق
 المجد للإنسانية التي تبغى قوة وبأساً .

وقالوا إن الغزالي مزج الدين بالآخرة ، فحشد في كلماته أنفاس
 الجحيم ليسوق الناس بالرعب والخوف ، وجمع في قلبه هبات
 الجنة ليدفع بالبشرية إلى الطاعة بالرغبة والتشويق ، وليس في
 هذا فوز كبير للأخلاق ، ولا فوز كبير للدين ، لأنه مسلك بعيد
 كل البعد عن الإقناع العلمي والبرهان المنطقي .

وقالوا فيما قالوا أيضاً إن الغزالي أجهل الناس بقواعد العلم
 وفلسفة الحكماء ، لأن العلم عنده طاعة وعبادة ، فمن خشى الله
 فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل . وبهذا أخرج الغزالي من صفوف
 العلماء والحكماء أئمة الفكر والابتكار والاختراع .

وليس في هذا ما يضير الغزالي أو يمس مكانته ، فقد قرأ

هؤلاء النقاد كتب الغزالي كما تقرأ الكتب الحديثة ، فنقدوها كما تنقد المؤلفات العصرية ، ووزنوها بموازين المنكشفات العامة الجديدة دون أن يلتفتوا إلى القرون التي تفصل بيننا وبين الغزالي ، ودون أن يقارنوا بين روح عصره وطابع عصرنا ، بل لعل الخطأ الأكبر أنهم نقدوه بروح العلم المادي ، وهو يحمل بيمنناه قلم الدين الروحي .

وما أصدق قول الغزالي في الدلالة على هذا المعنى : « مهما سمعت أمراً غريباً من أمور الدين جحدته أهل الكياسة في سائر العلوم ، فلا ينفرك جحودهم عن قبوله إذ محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما في الغرب » .

أجل لقد سلك الغزالي طريقاً ، وسلك نقاده طريقاً آخر ، فلم يلتقيا ولم يأتلغا ولم يتفاهما ، لأنه محال أن يظفر سالك طريق الشرق بما في الغرب .

الغزالي رجل دين ، وفيلسوف من فلاسفة الروح والقلب فلا توزن معارفه إلا بموازين الدين ولا يقاس تراثه إلا بالأقيسة الروحية القلبية .

ومن أراد أن يفهم الغزالي فلا بد أولاً أن يتذوق سعادة

الطاعة والعبادة . وسعادة الإيمان اليقيني وسعادة السلام الروحي
ولا بد أن يؤمن بأن خالق الاكوان يراقب خلجات نفسه .
وخلجات قلبه ووجهات أعماله ، وأنه إذا لم يكن يرى الله فإن
الله يراه .

من أراد أن يتذوق الغزالي فليؤمن بإيمان الغزالي ، أو فليحترم
تلك المثل العليا التي فنى فيها الغزالي ، ورصد قلبه وقلبه لها ،
وبدون هذا الإيمان ، وبدون هذا الإحترام ، لن يفهم أرباب
الأقلام سحر الغزالي ، وعمق ريقته وتراثه .

مجدد القرن الخامس

عن أبي هريرة أن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها .

وقد اتفق علماء التاريخ على أن مجدد المائة الأولى عمر بن عبدالعزيز والمائة الثانية الإمام الشافعي ، والثالثة الإمام الأشعري والرابعة الباقلاني ، والخامسة حجة الإسلام الغزالي .

والإسلام شريعة أحكمت وفصلت آياتها ، وبينت للناس ، فالجديد الإسلامي ، والمصلح الإسلامي إذن ليست رسالته أن يبتدع جديداً ، أو يبتكر تكلمة ، أو يأتي بوحى من عنده .

وإنما تجديد الدين يراد به تجديد النفوس الإسلامية ، وتبديد الترهات والجهالات التي تكون قد تراكت في القلوب والعقول .

والله سبحانه الذي تعهد الخلق بالرسالات هدى ونوراً ، كما ضللتهم قوى الشر ، وعبثت بهم أهواء النفوس ، هو الذي يمن على عباده بهؤلاء الملهمين المجددين الذين يسرون على أضواء النبوات وأشعة الرسالات .

وقد كان عصر الغزالي من العصور التي تهيأت لعبقري وثاب من عباقرة الروح والإيمان ليكافح تلك المادية الدنيوية الطاغية وتلك المذاهب الفكرية التي تسبح في ضباب من الظنون والتخمينات تدفع إلى الفروض والإباحية كما تدفع إلى الضلال والجحيم .

وجاء الغزالي فكان الإسلام يستقبل به عصرا جديدا ، واستمعت النفوس إلى ألحانه فكانها تستمع إلى ألحان جديدة تهبط من هدى جديد .

جدد الغزالي للناس أيمان القلوب، ذلك الايمان الصافي المتجه إلى إلهه يدركه العلماء والحكماء والعامه .

وبعث الغزالي في النفوس عقائد التوحيد الخالصة معطرة بعطر كأنه هبات الجنة ونفحات النعيم . وأضفى على التفكير الإسلامي نورا من المحبة والصفاء ، والاطمئنان والتوجه إلى الله توجهاً كاملا لا تشوبه رذيلة من رذائل الفكر ، ولا تقيصة من نقائص القلب ولا جريمة من جرائم البدن ، ولا سيئة من سيئات الأذى للناس .

كان تفكيره يلتمس هديه أبداً من السماء ، وكانت أعماله

مطبوعة أبدأ بطابع الإيمان، وكانت دعوته صريحة واضحة لا جدل فيها ولا رياء، ولا تعقيد ولا التواء، وإنما إيمان بخالق واحد ما من نجوى بين المرء وقلبه إلى وهو شاهد عليها، ولا من همسة بين صديقين إلا وهو علم بها وما من جارحة من جوارح البدن تعمل عملاً في ضحوة النهار أم في سقار من الليل إلا وهو شاهدها ومحاسب عليها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وهذا الميزان الدقيق لأمر الحياة هو دستور الغزالي، وهو عماد دعوته إلى الخير والهدى والسلام.

وتراث الغزالي ليس نزوة من نزوات النفس، ولا خاطرة من خواطر العقل، فيذهب بذهاب جيل ويفنى بمرور عصر من العصور، بل هو خلاصة جهاد القلب والعقل، ووحى الروح والإلهام، وفيض ونور من النبع الخفي، نبع العباقرة الأفاضل.

يقول الدكتور زويمر: «كل باحث في تاريخ الإسلام، يلتقي بأربعة من أولئك الفطاحل العظام وهم محمد النبي، والبخاري، والأشعري، والغزالي.»

وتلك كلمة حق فالغزالي بلا ريب أحد الذين شيدوا هيكل

الفكر الإسلامي ، وأقاموا دعائمهم وأسسهم على الهدى
ودين الحق .

ولعل الغزالي أكبر أصحاب المذاهب الفكرية وأبعدهم أثراً
في التوجيهات الإسلامية ، ومرجع هذا تلك القوة الخفية الكامنة
في شخصيته المهمة ، والتي استحوز بها على أذهان الجماهير في
عصره والقرون المتتابعة .

فالأشعري مثلاً استطاع أن يبتدع مذهب الأشعرية فأحدث
بتعاليمه وثبة فكرية ولكنها وثبة بين طائفة معينة من رجال
الفكر وعشاق علم الكلام ، ولكن أثره لم يتعد تلك الدائرة
الخاصة ولم يتسلسل في ضمير التاريخ نوراً وخلوداً .

أما الغزالي فكان أشبه بزعماء الجماهير وقادة الشعوب ، كان
تأثيره السحري عاماً شاملاً مستحوذاً على عقول الطبقات كافة ،
بل لعل تأثيره على الطبقات الوسطى وما دونها أشد أثراً
وأبعد مدى .

ومن أسرار تلك الهيمنة أن سلطان الغزالي مبعثه القلب
والعاطفة ، والمبادئ إذا مزجت بالقلوب والعواطف ثبتت
وخلدت على الحوادث والعصور ، فقد مزج الغزالي العقائد

بالعبادات ومزج أصول الشريعة بالتصوف ، وأطلق في الناس
بمخوراً مخدراً ساحراً ، يدعو إلى إيمان بسيط سليم خال من التعقيد
مجرد من التخمينات والافتراضات ، إيمان استسلام وعبادة وفناء
في الله ومحبة .

يقول العلامة ماكدونالد « إن الغزالي لم يكن كشافاً ولا
أول من ركب الطريق واهتدى إلى النجد والسكنه كان رجالاً
كبير الشخصية شديد التأثير النفسى ، نهج سبيلاً مطروقة فجعلها
مشروعاً عاماً ومحجة واضحة ، وهذا من فضل شخصيته وقوة خليفته »
ونستطيع أن نضيف إلى قوة التأثير النفسى وقوة الشخصية
القوة العلمية العظمى التى تفوق بها الغزالي ، تلك القوة التى
جعلته نسج وحده بين عباقرة الفكر فى عصره .

أو كما يقول الأستاذ الأكبر المراغى فى الدلالة على تعدد
جوانب العظمة فى تلك العبقرية .

« إذا ذكر ابن سينا أو الفارابى ، خطر بالبال فيلسوفان
عظيمان ، وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى
التصوف آراء لها خطورتها ، وإذا ذكر البخارى ومسلم واحمد
خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة

ومعرفة الرجال ، أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم
يخطر بالبال رجل واحد بل خطر بالبال رجال متعددون لكل
واحد قدرته وقيمه .

يخطر بالبال الغزالي الأصولي الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ،
والغزالي المتكلم أمام أهل السنة وحامي حماها ، والغزالي الاجتماعي
الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ،
والغزالي الفيلسوف أو الذي ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها من
زخرف وزيف ، والغزالي المرابي ، والغزالي الصوفي الزاهد ، وإن
شئت فقل إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره .

تلك هي شخصية الغزالي ، شخصية كاملة القوى العلمية على
تشعبها وتعددتها ، كاملة الحرارة الروحية والإيمان القلبي ، وبفضل
تلك الشخصية أضفى عليه العالم الإسلامي لقبه الخالد
حجة الإسلام .

حجة الاسلام :

جاء الغزالي والفلسفة تناهض الدين وتوائبه ، والمذاهب
العقيلة تتصارع وتبرع في الجدل والاستخراج ، وتبتعد عن الروح

والقلب ، وجمهرة المسلمين في حيرة ، ورجل الشارع متعب القلب ، متعب الروح ، لا يعرف كيف يهتدى ، ولا يعرف كيف يطمئن بين تلك التيارات .

فخطم الغزالي الفلسفة ، وصرع المذاهب ، ثم أتى إلى الجمهرة الإسلامية فخطب منها القلب والروح وأدخل السلام والهدوء إلى القلوب والأرواح .

وأعاد للإسلام شبابه في القلوب ، وحجته في العقول ، ومكانته في الأرواح والعبادات .

هدم الغزالي الفلسفة القديمة ليقيم الدين ويعلى بنيانه ، ثم عاد بالناس من الجرى وراء النظريات والجدليات واختلاف المذاهب إلى روح الإسلام وجوهره الصافي ، ومثله العليا الداعية إلى الإيمان والسلام .

علم الناس أن الحياة محبة ، محبة لله في جلاله ، ومحبة للأنبياء جميعهم ، ومحبة للبشرية كافة ومحبة للخير على تعدد ألوانه ومساعدة عليه بالنفس والمال ، ودفع للأذى عن كل روح أيًّا كان لونها أو دينها .

طه عبد الباقي سررر نعيم

المفضليات

بشرح الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هرون

اختيار دقيق موثق ، من نفيس الشعر في العصور الأولى ، فيه ١٣٠ قصيدة من الأدب العالي الفخم ، تحيظه إمامان كبيران من أئمة القرن الثاني : إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، أحد أبطال آل البيت ونبلائهم ، تحيّر منها ٧٠ قصيدة ، ثم بنى عليها الكتاب ، المفضل بن محمد الضبي .

وقد شرح الكتاب عالم من أكبر علماء العربية في القرن الثالث ، أبو محمد الأنباري الكبير المتوفى سنة ٣٠٥ ، شرحا واسعاً ضخماً ، أثبت فيه أقوال الأقدمين في تفسير الغريب بنصوصها الفصيحة القوية .

وهذا الشرح العظيم طبعته جامعة أكسفورد منذ عهد بعيد ، ولكنه عزيز الوجود غالي الثمن .

فراى الشارحان أن يقربا الإفادة منه للأدباء والمتفنيين ، علما ومالا ، فاختارا ، أجد ما فيه من النصوص وأغلاها ، وأصحها شرحا وتفسيرا ، في قول موجز محكم ، وزادها صحة وإتقاناً واستدراكاً . وابتكرا فيه شيئا طريفا ، يعين على فهم القصيد ، بذكر « جو القصيدة » الذي يبين عن الأحداث التاريخية التي تتعاقب بها ، ومرامى الشاعر ومقاصده منها ، ثم تخرج آياتها من مصادر الأدب وعيونه . وقد انطوى هذا الشرح على أكثر من مائة وستين كلمة أو معنى لم تذكر في المعاجم المعروفة ، وهذه وحدها ثروة لقوية أدبية ، يحرص عليها كل عالم وكل أدب . وأتبعنا الكتاب بفهارس دقيقة للشعراء والقوافي ، وللزيادات على المعاجم . ثم بفهارس فنية تحليلية مبتكرة ، هي في صميم فنون الشعر . والكتاب يقع في جزئين فيهما أكثر من ٤٥٠ صفحة وثمنهما ٥٠

بمناسبة إعلان يوم النصر ... واستعداد
الدول لوضع قواعد سلام دائم على الأرض ...
ونهبوض الأمم إلى البناء والتعمير ...

تقدم دار المعارف إلى العالم العربي

كتاب

التعاون الدولي والسلام العام

بقلم

مضرة صاحب العزة محمد زفمت بك

الثنى ٣٠

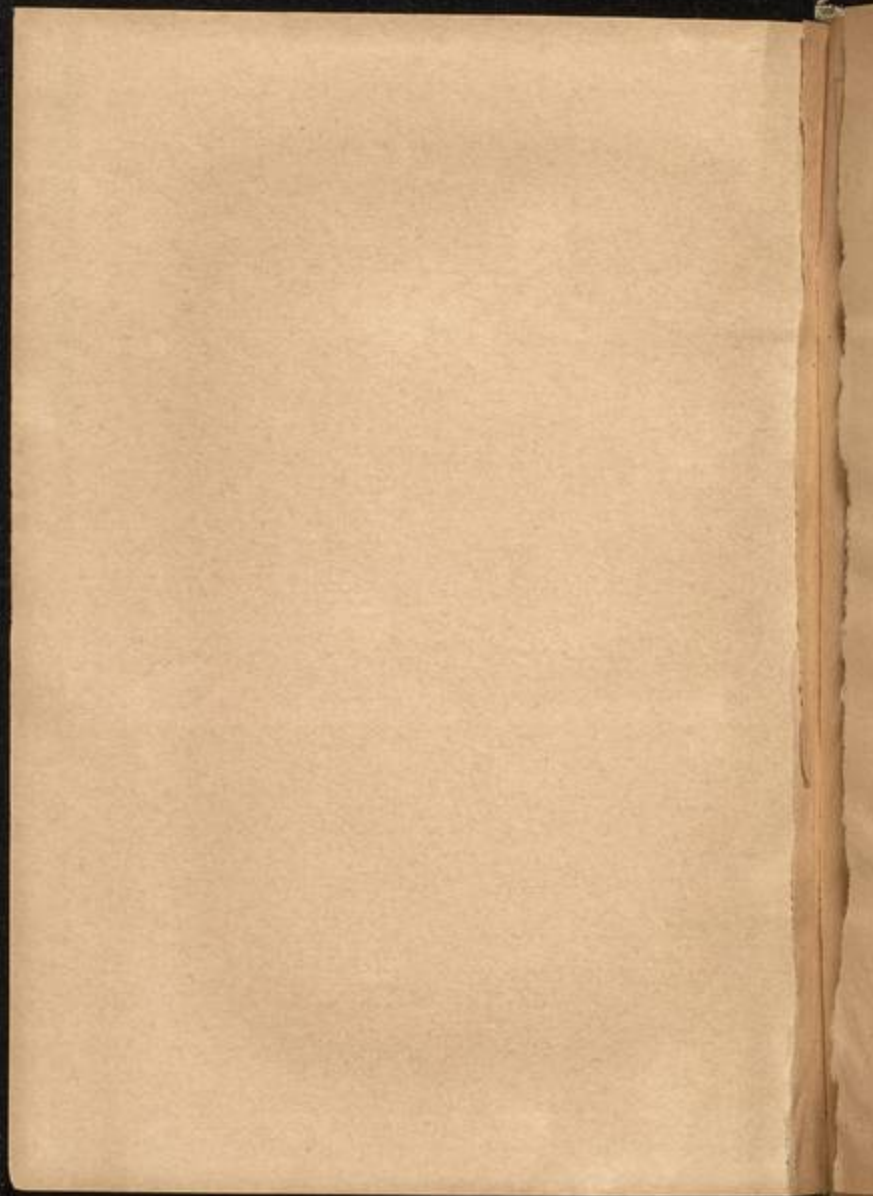


دار المعارف

للطباعة والنشر

- المحل الرئيسي بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية : ٢ ميدان محمد علي
مكتب فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمّن الله بالقدس
مكتب السودان : شارع السرदार بالخرطوم

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
1 AUG 4 - 1948	Aug 19		
C28 (946) M100			

893.7G34

BS4

JUL 25 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58869239

893.7G34 BS4

Ghazzali